المصريون فى رحلة العبدرى

د. نجوان أبو بكر محمد
معهد البحوث والدراسات الأفريقية ودول حوض النيل- جامعة أسوان

ملخّص:

يُعَدّ أدب الرحلات من أهم المصادر التي تعكس صورة المجتمعات كما رآها الرحّالة، بما تنطوي عليه من مشاهدات وانطباعات ذاتية تكشف عن وعيهم وثقافتهم وطرائق تمثّلهم للآخر. وفي هذا السياق تأتي رحلة العبدري، التي تمثّل نموذجًا لرحّالةٍ مغربيٍ زار مصر في العصر المملوكي، فسجّل ما شاهده من أحوال أهلها وعاداتهم وتقاليدهم، غير أنّ أحكامه جاءت مشوبةً بالتحامل والمبالغة في التعميم، فصوّر المصريين تصويرًا بعيدًا عن الإنصاف، متأثرًا بخلفيته الثقافية والبيئية.

يتناول هذا البحث ما أورده العبدري عن المصريين بالنقد والتحليل، من خلال مقارنته بروايات الرحّالة السابقين والمعاصرين واللاحقين له، بهدف تقويم الصورة التي رسمها وبيان أبعادها الفكرية والاجتماعية.

وتخلص الدراسة إلى أنّ ما سجّله العبدري لا يُعبّر عن واقع المجتمع المصري بقدر ما يعكس رؤيته الشخصية وطريقته في تصوير ما رآه، مؤكدةً أنّ مصر- في العصر المملوكي- كانت مركزًا حضاريًا مزدهرًا، ومجتمعًا نابضًا بالحياة والعلم والتنوّع الثقافي، لا تُدرك حقيقته إلا بنظرة منصفة تتجاوز حدود الانطباع الفردي والتحيّز المسبق.

الكلمات المفتاحية: رحلة العبدري، المصريون، العصر المملوكي، الصورة الذهنية.

Abstract:

Travel literature is considered one of the most important sources that reflect the image of societies as seen by travelers. It contains observations and subjective impressions that reveal their awareness, culture, and methods of representing the "Other." In this context, the journey of al-`Abdari stands out. It represents a model of a Moroccan traveler who visited Egypt during the Mamluk era, documenting the conditions, customs, and traditions of its people. However, his judgments were tainted by prejudice and exaggerated generalization, leading him to depict the

(ISSN: 2536- 9555)

Egyptians in a manner far from fair, influenced by his own cultural and environmental background.

This research critically analyzes al-`Abdari's accounts of the Egyptians by comparing them with the narratives of travelers preceding, contemporary with, and following him. The goal is to evaluate the image he portrayed and to elucidate its intellectual and social dimensions.

The study concludes that al-`Abdari's record does not reflect the reality of Egyptian society as much as it reflects his personal vision and his way of portraying what he saw. It affirms that Egypt—during the Mamluk era —was a flourishing civilizational center and a vibrant society rich in life, knowledge, and cultural diversity, the true nature of which can only be grasped through an impartial perspective that transcends individual impression and preconceived bias .

Keywords: Abdari's Journey, Egyptians, Mamluk Era, Mental Image.

المقدمة:

حَظِيَ أدب الرحلات بأهمية كبيرة في توثيق المشاهدات المباشرة لحياة الشعوب، فشكّلت تلك الكتابات مصدرًا غنيًّا يزخر بصور دقيقة عن المجتمعات وعاداتها وأخلاقها، كما رآها الرحّالة في أثناء أسفارهم. ولم يكن المصريون بمنأى عن أنظار هؤلاء الرحّالة، بل شكّلوا في كثير من الروايات موضوعًا حاضرًا بقوة، استوقف أنظارهم، واستثار أحكامهم وتصوراتهم. وقد تباينت صور المصريين في تلك الكتابات؛ فمنهم من تحلّى بقدرٍ من التحفظ والاتزان، فاقتصر على تسجيل مشاهداته اليومية دون تضخيم للعثرات والزلات، إدراكًا منه لطبيعة المجتمعات البشرية التي لا تخلو من القصور. في المقابل برزت أقلام أخرى اتسمت بالصرامة، لم تغفل شاردة ولا واردة، وسجّلت كل ما وقعت عليه العين، سواء أكان محمودًا أم مذمومًا. بل إن من الرحالة من اتبع نهجًا يركّز على تعقّب المثالب والنقائص لتدوينها، كما فعل العبدري.

ومن هنا جاء موضوع هذا البحث بعنوان: "المصريون في رحلة العبدري"، حيث نستعرض جلّ ما ذكره العبدري عن المصريين وأخلاقهم، ونتناول ذلك بالنقد والتحليل من

خلال موازنته بما ورد في روايات الرحالة السابقين له واللاحقين عليه، بهدف تقويم الصورة التي رسمها، وتحديد ما إذا كانت منصفة في تمثيلها للمجتمع المصري أم مشوبة بأحكام مسبقة وتحامل ظاهر.

وتنقسم هذه الدراسة– بعد المقدمة– إلى مجموعة من المحاور الرئيسة، تشمل:

- **مفهوم الرحلة** في اللغة والاصطلاح، بوصفه المدخل لفهم طبيعة هذا الأدب ووظائفه.
- **التعريف بصاحب الرحلة** وإبراز ملامح شخصيته العلمية والبيئية التي انعكست على نظرته للمجتمعات.
- **الحالة السياسية في مصر زمن الرحلة**، لما لها من أثر مباشر في تشكيل الواقع الاجتماعي الذي رآه العبدري.
- **المصريون في رحلة العبدري**، من حيث سماتهم العامة وصورهم كما وصفها الرحالة.
- **أهل الإسكندرية**، وتحليل انطباعاته عنهم في ضوء خصوصية المدينة ومكانتها.
- **أهل القاهرة**، وما دوّنه عنهم من مشاهدات وأحكام.

وتُختتم الدراسة بـ **خاتمة** تُلخّص أبرز النتائج، وتقيّم الصورة التي رسمها العبدري للمجتمع المصري في ضوء المقارنة والتحليل النقدي.

مفهوم الرحلة

أولاً: فى اللغة

عرّف ابن منظور الرحلة بأنها:"الترحيل والإرحال بمعنى الإشخاص والإزعاج؛ يقال: رَحَلَ الرجل إذا سار"[1]، أي الانتقال والسير في الأرض. وقد وردت الكلمة أيضًا بمعنى الارتحال، أي الانتقال من مكان إلى آخر، كما تدل على الجهة التي يقصدها الإنسان،

[1] ابن منظور، محمد بن مكرم(ت٧١١هـ/ ١٣١١م): لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، جـ: ١١، ص ٢٧٦، ص٢٧٧.

(ISSN: 2536- 9555)

وتُطلق على السفرة الواحدة[٢]. ويقال:" رجل رَحول وقوم رُحَّل أَى يرتحلون كثيراً، ورَجُل رَحَّال: عالم بذلك مُجِيدٌ له"[٣].

ثانيًا: فى الاصطلاح:

لا يبتعد المفهوم الاصطلاحي كثيرًا عن الأصل اللغوي؛ فالرحلة في الاصطلاح تعني الانتقال من مكان إلى آخر بقصد تحقيق غاية معيّنة[٤].

وتُعد الرحلة فنًّا من فنون الأدب العربي تفوّق فيه الرحّالة المسلمون، ولاسيما المغاربة والأندلسيون الذين بلغوا فيه ذروة الإبداع. وتعددت دوافعهم للقيام برحلاتهم، وكان من أبرزها[٥]:

١– أداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة.

٢– التزوّد بالعلم، ولقاء العلماء في الحواضر الإسلامية الكبرى، وطلب الإجازات.

٣– ممارسة التجارة، التي كانت منذ القدم أحد أهم محفّزات السفر والتنقّل.

وقد جمع صاحب رحلتنا– العبدري– بين هذه الدوافع مجتمعة، كما سيأتي بيانه، وهو يُعد من أبرز من كتبوا في هذا الفن، تاركًا أثرًا بيّنًا في أدب الرحلة الإسلامي.

التعريف بصاحب الرحلة:

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري[٦]، وتنتهي نسبته إلى عبد الدار بن قصي بن كلاب، ومنه اشتُق لقبه "العبدري"[٧]. وقد أقام أسلافه في

---

[٢] ابن منظور: المصدر السابق، ص٢٧٧، ص٢٧٩، الفيروزابادى، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/١٤١٤م): القاموس المحيط، تحقيق: أنس محمد الشامى، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٦٢٦.

[٣] ابن منظور: المصدر السابق، ص ٢٧٧.

[٤] حسين إبراهيم الجبرانى: الرحلات العلمية بين مصر والمشرق الإسلامى فى العصر المملوكى الأول، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط:١، ٢٠١٧م، ص٦١.

[٥] للمزيد عن دوافع الرحلة راجع: فؤاد قنديل: أدب الرحلة فى التراث العربى، الدار العربية للكتاب، ط:٢، القاهرة،١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١٩، ص٢٠، حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، عالم المعرفة، يونيو ١٩٨٩م، ص٨٠، ص٨١، الحسن الشاهدى: أدب الرحلة بالمغرب فى العصر المرينى، منشورات عكاظ، د. ت، جـ: ١، ص ٦٨ ومابعدها.

منطقة حاحة، وهي قبيلة بربرية تحيط بمدينة الصويرة المغربية على الساحل الأطلسي، وتُنسب إليها النسبة "الحيحي" كما ينطقها المغاربة[٨]. وقد اختلف المؤرخون حول أصله؛ فمنهم من نسبه إلى مدينة بلنسية[٩] بالأندلس، وهو الرأي الذي تبنّاه عدد من

---

[٦] للأسف لم نعثر له على ترجمة غير فى مصدر واحد وهو كتاب" جذوة الاقتباس" لابن القاضى، بيد أن تلك الترجمة لم تكن وافية وجاءت مقتضبة إذ لم يذكر فيها تاريخ مولده ولا نشأته ولا تاريخ وفاته، ومن المرجح أنه استقى ترجمة العبدرى من رحلته، وسار على منواله من ترجم بعده للعبدرى. ابن القاضى، أحمد بن محمد بن أبى العافية(ت ١٠٢٥هـ/١٦١٦م): جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرياض، ١٩٧٣م، ص ٢٨٦-٢٨٨، على إبراهيم كردى: الرحالة العبدرى، مجلة البحوث والدراسات فى الآداب والعلوم والتربية، كلية المعلمين، جامعة الملك عبد العزيز، س: ٢، ع:٣، ٢٠٠٥م، ص٤٢.

وللمزيد عن ترجمته انظر: العبدرى، أبى عبد الله محمد بن محمد(ت بعد ٧٠٠هـ/١٣٠٠م): رحلة العبدرى، تحقيق: د. على إبراهيم كردى، دار سعد الدين، دمشق، ط:٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ترجمة المؤلف، ص٧ وما بعدها، الزركلى، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، لبنان، ط: ١٥، مايو٢٠٠٢م، جـ:٧، ص ٣٢، الشاذلى بو يحيى: الرحلة المغربية، حوليات الجامعة التونسية، ع:٤، تونس، ١٩٦٧م، تقديم الكتاب، ص١٧٧ وما بعدها، حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مكتبة مدبولى، القاهره، ط:٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٥١٨ وما بعدها، محمد الفاسى: أبو عبد الله محمد العبدرى، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦١-١٩٦٢، مج:٩،١٠، ص١ وما بعدها، كراتشكوفسكى، اغناطيوس يوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د. ت، ق:١، ص٣٦٧، ص٣٦٨، زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، دار الرائد العربى، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ١٣٢، ص١٣٣.

[٧] العبدرى: المصدر السابق، ترجمة المؤلف ص٧، ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد(ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م): اللباب فى تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد، جـ:٢، ص٣١٢، الزبيدى، محمد بن محمد بن عبد الرازق (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م): تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، د.ت، جـ:١١، ص٣٣٥، الزركلى: المرجع السابق، نفس الصفحة.

[٨] محمد الفاسى: المرجع السابق، ص٢.

[٩] بلنسية Valencia: قاعدة من قواعد الأندلس، تقع فى شرق الأندلس وهى مدينة سهلية، عامرة بها أسواق وبساتين، الإدريسى، أبو عبد الله محمد بن محمد(ت ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤م): نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، مج: ٢، ص ٥٥٦، الحميرى، أبو عبد الله محمد بن عبد

(ISSN: 2536- 9555)

الباحثين[١٠]، ومنهم من رجّح مغربيته، وقد ذهب الأستاذ محمد الفاسي إلى الجزم بكونه من منطقة حاحة، واصفًا إياه بأنه "مغربي صميم"، مستندًا إلى كونه لم يزر الأندلس، ولو كانت موطنه لما امتنع عن زيارتها، كما أشار إلى تصريح العبدري نفسه بأنه من مراكش؛ وذلك في جوابه على سؤال وجّهه إليه القاضي ابن دقيق العيد[١١].

غير أن هذا الرأي لا يستقيم في ضوء ما ورد في نص الرحلة من إشارات صريحة تدل على معرفة العبدري بأخلاق أهل الأندلس، الأمر الذي يرجّح أنه قد دخلها أو مرّ بها. فقد قال: "وما رأيت بالمغرب الأقصى والأندلس على شاكسه أخلاقهم، ولا بإفريقية وأرض برقة والحجاز والشام..."[١٢]، وهو نص يُظهر اطّلاعه على أحوال أهل تلك البلاد، ومن بينهم الأندلسيون.

ومن الراجح، استنادًا إلى ما ورد في نص الرحلة، أن أصل العبدري يعود إلى بلنسية، وأن أسرته قد انتقلت إلى المغرب في وقت مبكر من حياته، واستقرّت في منطقة حاحة[١٣].

أمّا تاريخ ولادته، فلم تذكره المصادر صراحة، لكن محقّق رحلته قدّرها بنحو سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥م[١٤]، مستدلًا على ذلك بأنه حين قام برحلته في الخامس والعشرين

المنعم(ت أواخر القرن ٩هـ/١٥م): صفة جزيرة الأندلس متنخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: ليفى بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧ م، ص٤٧.

[١٠] الزركلى: المرجع السابق، جـ:٧، ص٣٢، زكى محمد حسن: المرجع السابق، ص١٣٢، كراتشكوفسكى: المرجع السابق، ٣٦٧، آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة: حسين مؤنس، المركز القومى للترجمة، القاهرة،٢٠١١م، ص ٣٦٢، نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٨٧م، ص١٧٠، عمر فروخ: تاريخ الأدب العربى، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط:١، ١٩٨٣م، ص٤٠١.

[١١] محمد الفاسى: المرجع السابق، ص٢ وما بعدها. وابن دقيق العيد هو، تقى الدين أبو الفتح محمد بن على بن وهب(ت ٧٠٢هـ/١٣٠٢ م) أصله من منفلوط، ونشأ بقوص، وتعلم بدمشق، والإسكندرية، ثم بالقاهرة، تولي قضاء الديار المصرية، ودرس بالمدرسة الكامليّة، ذكره العبدرى فيمن التقاؤهم فى مصر وأثنى عليه. للمزيد انظر العبدرى: المصدر السابق، ص٢٩٩ وما بعدها، الزركلى: المرجع السابق، جـ:٦، ص٢٨٣، ص٢٨٤.

[١٢] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٧٨.

[١٣] نقولا زيادة: المرجع السابق، ص١٧٠، ص١٧١.

من ذي القعدة سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، كان في عنفوان شبابه، وقد وصفه شيخه أبو زيد الدبّاغ بذلك[١٥]. ويُستنتج من ذلك أنه كان آنذاك في نحو الخامسة والأربعين، خاصة وأنه وصف ابن خميس التلمساني، الذي كان في الثامنة والثلاثين، بأنه "فتيّ السنّ"[١٦].

تعليمه وشيوخه:

لم يذكر العبدري في رحلته شيئًا عن مراحل دراسته الأولى، غير أن من الراجح أنه نشأ في بيت علم، وتلقى معارفه الأولى عن والده؛ إذ يذكر أحد الباحثين[١٧] أنّ العبدري نعت نفسه قائلًا:" الفقيه العالم العارف المتفنن أبو عبد الله ابن الشيخ الفقيه الصالح الخطيب المرحوم أبي عبدالله بن علي"، فهو يصف والده بالفقيه الخطيب، مما يدلّ على أن والده كان من أهل الفقه والخطابة. كما أن أخاه يحيى كان من العلماء؛ إذ يذكر العبدري عند لقائه بالفقيه أبي العباس البطرني[١٨] في تونس، أن أخاه قد سمع الأربعين حديثًا المسلسلة، وأن البطرني أجازهما إجازة عامة[١٩].

ويبدو أنه التحق بالكُتّاب في صغره في بلدته حاحة، فحفظ القرآن الكريم وتعلّم مبادئ الحساب، ثم واصل طلب العلم متجهًا إلى مراكش التي كانت آنذاك مركزًا علميًّا مرموقًا، حيث تلقّى العلم على أيدى علمائها[٢٠].

---

[١٤] العبدرى: المصدر السابق، ترجمة المؤلف ص٧- ص٨.

[١٥] العبدرى: المصدر السابق، ص١٦٤.

[١٦] العبدرى: المصدر السابق، ص٥٣.

[١٧] محمد الفاسى: المرجع السابق، ص٤.

[١٨] أبو العباس البطرنى: هو أحمد بن موسى بن عيسى بن أبى الفتح (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م) شيخ القراءات والحديث بتونس. انظر ترجمته: الصفدى، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م): أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: د.علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، دار الفكر، دمشق- سوريا، ط:١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، جـ:١، ص٣٩٩، ص٤٠٠، العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية- صيدر اباد/ الهند، ط:٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، جـ:١، ص٣٨٢.

[١٩] العبدرى: المصدر السابق، ص ٥٥٧.

[٢٠] العبدرى: المصدر السابق، ترجمة المؤلف ص٨.

(ISSN: 2536- 9555)

وكان لكثرة مشايخه وتنوع ثقافاتهم أثرٌ بالغ في تكوينه العلمي؛ فقد بدا من خلال رحلته حافظًا للقرآن والحديث، ملمًّا بالأدب العربي، واللغة والبلاغة والعَروض، عليمًا بأيام العرب وغزواتهم، بالإضافة إلى إلمامه الدقيق بأسماء البلدان والمواقع الجغرافية[٢١].

مؤلفاته:

لم تُشِر المصادر المتوفرة إلى أي مؤلفات للعبدري سوى كتاب رحلته، غير أن محقّق الرحلة لا يسلم بهذا التصور؛ ويرى أن رجلًا في مثل مكانته العلمية يُفترض أن يكون له مؤلفات أخرى ربما لم تصل إلينا، ويعزو غيابها إلى أن غوائل الدهر قد طمستها، فلم يبقَ منها سوى هذه الرحلة التي تسنّى لها أن تسلم من الضياع[٢٢].

منهجه فى تأليف الرحلة:

أوضح العبدري في مقدمة رحلته المنهج الذي سيتّبعه في تدوينها، مؤكدًا أنه يقصد تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيسر رسمه وتسديده من أوصاف البلدان وأحوال سكانها حسب ما أدركه بالحس والعيان، مع مراعاة الصراحة والموضوعية دون تورية أو تحريف[٢٣]. وقد التزم العبدري بهذا المنهج الذي رسمه لنفسه، فوصف المباني والآثار في البلاد التي مرّ بها وصفًا دقيقًا[٢٤]، يُضاهي في دقّته كثيرًا من الجغرافيين الذين اقتصروا في مؤلفاتهم على النقل، بينما اعتمد هو على المشاهدة المباشرة[٢٥].

كما تناول في رحلته جوانب متعددة من حياة المجتمعات التي زارها؛ فعرض للواقع الديني والتاريخي والاقتصادي، فضلًا عن الحياة الاجتماعية، حيث وصف عادات السكان وتقاليدهم وزِيّهم ومستواهم العلمى[٢٦]. وقد جاءت ملاحظاته متباينة بين حدّة النقد أحيانًا، والمبالغة أو التسرّع فى الحكم أحيانًا أخرى، كما سيتضح في ثنايا هذا البحث.

---

[٢١] العبدرى: المصدر السابق، ترجمة المؤلف ص٨.

[٢٢] العبدرى: المصدر السابق، المقدمة ص٩.

[٢٣] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٨.

[٢٤] العبدرى: المصدر السابق، ص١٢.

[٢٥] عواطف محمد يوسف: الرحلات المغربية والأندلسية، الرياض،١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م، ص ١١٩.

[٢٦] العبدرى: المصدر السابق، ص١٢، عواطف محمد يوسف: المرجع السابق ص١٢٠.

الرحلــة:

كـان الـدافع الأول وراء قيـام العبـدري برحلتـه هـو أداء فريضـة الحـج وزيـارة المدينـة المنورة، وقد نوى الإقامة بمكة فأكترى دارًا وهيّأها، غير أن اندلاع فتنة هناك دفعه إلى العدول عن نيّته والعودة إلى بلده[٢٧]، أما الدافع الثاني، فتمثل في رغبته بلقاء العلماء والفقهاء والأخذ عنهم، وقد بدا شديد الحرص على تحصيل السند العالي فيما تلقّاه عنهم من علوم الحديث[٢٨].

ويبدو أن ثمّة دافعًا ثالثًا حثّه على القيام برحلته، وهو التجارة؛ إذ يشير في رحلته إلى أحداث الفتنة التي وقعت بمكة، وكيف خرج منها بما تيسّر له من المتاع، بينما مُنع من تبقّى من الركب من مغادرتها، ومن بينهم رجل تونسي أقام في الدار التي كان العبدري قد استأجرها بمكة، فباع القمح الذي تركه العبدري هناك، ثم سلّمه ثمنه عند خروجه[٢٩].

خرج العبدري من بلدته حاحة في شهر ذي القعدة سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، فمرّ بمنطقة السوس، ومنها إلى تلمسان، وبجاية، وقسنطينة، وتونس، والقيروان، وقابس، ثم طرابلس، وبرقة، فالإسكندرية، فالقاهرة، ومنها توجّه إلى مكة لأداء فريضة الحج، و زار بعد ذلك المدينة المنورة، ومدينة الخليل، وبيت المقدس، وعسقلان، وغزّة، قبل أن يعود إلى القاهرة، ويغادر منها عبر الإسكندرية، مارًّا مجددًا ببرقة وطرابلس وتونس وبجاية وتلمسان، فمرّ بتازة وفاس ومكناسة حتى عاد إلى موطنه[٣٠].

ويُرجّح أن الرحلة قد استغرقت نحو ثلاث سنوات، إذ يذكر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في مقدمته لرحلة التيجاني أن العبدري زار تونس مرتين: الأولى في طريقه إلى الحج سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، والثانية عند عودته سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م[٣١]، وهو ما أيّده

---

[٢٧] العبدرى: المصدر السابق، ص٣٩١.

[٢٨] العبدرى: المصدر السابق، ص١٠.

[٢٩] العبدرى: المصدر السابق، ص ٣٩٢، ص٣٩٣.

[٣٠] العبدرى: المصدر السابق، ص٤٠ وما بعدها.

[٣١] التيجانى، أبو محمد عبد الله بن محمد(ت حوالى٧١٧هـ/١٣١٧م): رحلة التيجانى، الدار العربية للكتاب، ليبيا– تونس، ١٩٨١م، المقدمة ص: ي– ز.

(ISSN: 2536- 9555)

محقّق الرحلة، مستندًا إلى ما أورده البلوى[٣٢] من أبيات شعرية للعبدري قال إنه أنشده إياها بتونس سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، مرجّحًا بذلك أنه أقام بتونس عامًا آخر[٣٣].

وفاته:

يرجّح محقّق الرحلة أن وفاة العبدري قد وقعت بعد سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، إذ لا تُعرف له ترجمة أو ذكر بعد هذا التاريخ[٣٤].

الحالة السياسية فى مصر زمن الرحلة:

قدم العبدري إلى مصر في عهد السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨–٦٨٩هـ/ ١٢٧٩–١٢٩٠م)، الذي ما إن استتب له الأمر[٣٥] حتى شرع في مواصلة الجهاد ضد

---

[٣٢] البلوى:هو أبو البقاء، خالد بن عيسى بن أحمد البلوي(ت قبل سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م) كان فقيهًا أديبًا من الأندلس، تولى القضاء وقام بثلاث رحلات، تعد رحلتة الثانية إلى المشرق لأداء فريضة الحج أهمهم، وقد استغرقت أربع سنوات من سنة ٧٣٦هـ إلى سنة ٧٤٠هـ، حيث ألف فيها كتابه "تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق" ذاكرا فيه أسماء البلاد التى مر بها وعلمائها الذين التقى بهم وأخذ عنهم. للمزيد انظر: البلوى، خالد بن عيسى (ت قبل سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م): تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، تحقيق: الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامى بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، د.ت، جـ:١، مقدمة المحقق ١٨ وما بعدها، ابن الخطيب، لسان الدين (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م): الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة، د. ت، مج:١، ص٥٠٨ وما بعدها.

[٣٣] العبدرى: المصدر السابق، ص١١.

[٣٤] العبدرى: المصدر السابق، ترجمة المؤلف ص٨.

[٣٥] عقب توليه الحكم واجه قلاوون اعتراضًا من بعض أمراء المماليك، وكان من أشهرهم شمس الدين سنقر نائب الشام، الذى رفض خلع الملك العادل سلامش وتولية قلاوون الحكم، فدعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل، وكاتب بعض الأمراء الصالحية والظاهرية، كما راسل ابغا بن هولاكو يحثه على غزو الشام، بيد أن قلاوون تمكن من القضاء على ثورته وغيرها من حركات التمرد، واستطاع بمرور الوقت توطيد أركان حكمه وتثبيت سلطته. للمزيد عن هذه الثورات انظر: المقريزى، تقى الدين أبى العباس أحمد بن على (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط:١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، جـ:٢، ص ١٣١ وما بعدها، د. محمد جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون فى مصر، دار الفكر العربى،

كل من المغول والصليبيين، وقد أدرك قلاوون صعوبة خوض القتال في جبهتين في آنٍ واحد، فعقد معاهدة صلح مع الصليبيين في الشام سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م لمدة عشر سنوات[٣٦]، ثم تفرّغ لمواجهة المغول الذين عاودوا الإغارة على بلاد الشام[٣٧]، فالتقى بهم في موقعة حمص في ١٤ رجب ٦٨٠هـ/٣٠ أكتوبر ١٢٨١م، وألحق بهم هزيمة قاسية قُتل فيها عدد كبير من جنودهم، وفرّ الباقون عائدين إلى بلادهم[٣٨].

وبعد أن فرغ المنصور من التصدي للمغول، وجّه اهتمامه نحو محاربة الصليبيين، غير ملتزم بما تبقّى من المعاهدة التي عقدها معهم، إذ كان يرى أنهم لا يزالون يُشكّلون تهديدًا مباشرًا لدولته. فاستولى على حصن المرقب سنة٦٨٤هـ/١٢٨٥م[٣٩]، ثم على

د.ت، ص ٢٣ وما بعدها، د. محمد حمزه إسماعيل الحداد: السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولى، ط:٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٢٣.

[٣٦] ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م): تاريخ ابن الفرات، تحقيق: د. قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٤٢م، مج:٧، ص ٢٠٤، ص٢٠٥، المقريزى: المصدر السابق، جـ:١، ص١٣٩، عبد السلام جمعه محمد: قادة المماليك الثلاث (الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل ٦٥٨هـ/١٢٦٠م- ٦٩٣هـ/١٢٩٣م) وتجديد دعوة الجهاد ضد الصليبيين وطردهم من أرض المسلمين، مجلة جامعة تكريت للعلوم، مج:٢٠، ع:٣، آذار ٢٠١٣م، ص٢١٥.

[٣٧] كان المغول قد أغاروا على بلاد الشام سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، فاتجه المنصور قلاوون لمحاربتهم، بيد أنهم ما أن علموا بوصول جيش قلاوون إلى غزة حتى عادوا أدراجهم ورجعوا إلى بلادهم. ابن الفرات: المصدر السابق، مج:٧، ص١٩٠، سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط:٢، ١٩٧٦م، ص٤٧.

[٣٨] أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م): المختصر من أخبار البشر، تحقيق: د.محمد زينهم عزب،أ. يحيى سيد حسين، دار المعارف، القاهرة، د.ت، جـ:٤، ص٢٣، ص٢٤، ابن الفرات: المصدر السابق، مج:٧، ص ١٩٠، ص١٩١، المقريزى: المصدر السابق، جـ:٢، ص ١٤٦وما بعدها، سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٤٧، عبد السلام جمعه محمد: المرجع السابق، ص ٢١٥، ص٢١٦.

[٣٩] أبو الفدا: المصدر السابق، جـ:٤، ص٣٠، سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٧٠، دريد عبد القادر نورى: سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية فى بلاد الشام، مجلة

(ISSN: 2536- 9555)

مدينة اللاذقية سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م[٤٠]، وأخيرًا على طرابلس سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م[٤١]؛ وما لبث الصليبيون أن أخلو المناطق التابعة لإمارة طرابلس، مثل بيروت وجبلة، فضمّها قلاوون إلى سلطانه، وبذلك انحصر الوجود الصليبي في الشام في عدد محدود من المدن، أبرزها: عكا، وصيدا، وصور، وغيليت، وبعض الحصون الصغيرة. وكان قلاوون قد بدأ يُعِدّ العدّة لفتح عكا، غير أن المنية أدركته سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، قبل تنفيذ خطته[٤٢].

ولعلّ فهم المناخ السياسي الذي كانت تمرّ به مصر زمن زيارة العبدري، يفسّر بعضًا من ملامح رؤيته للمجتمع المصري، كما تجلّت في رحلته. فقد كانت البلاد في حالة استنفار دائم، بين جبهات قتال مفتوحة مع المغول والصليبيين، وسياسات داخلية صارمة لضبط الأمن وتحقيق الاستقرار، وفي خضم هذه الظروف، قد لا يكون مستغربًا أن يُصادف الرحالة بعض مظاهر الخشونة، أو التعقيدات الإدارية، أو التفاوت الاجتماعي، وهو ما قد يُسهم– جزئيًا– في تفسير بعض أحكامه القاسية تجاه المصريين، والتي سنعرض لها بالتحليل فيما يلى:

المصريون فى رحلة العبدرى:

أهل الإسكندرية:

بعد أن أشاد العبدرى بمعالم الإسكندرية العمرانية والأثرية[٤٣]، سرعان ما انتقل إلى الحديث عن أهلها، فأسرف في ذمهم، ووصف غالبهم بأنهم رعاع لا فائدة منهم، وأن

آداب الرافدين، جامعة الموصل، ع:٩، ايلول ١٩٧٨م، ص٥٣، عبد السلام جمعه محمد: المرجع السابق، ص٢١٦.

[٤٠] أبو الفدا: المصدر السابق، جـ:٤، ص٣١، سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٧٠، عبد السلام جمعه محمد: المرجع السابق، ص٢١٦.

[٤١] أبو الفدا: المصدر السابق، جـ:٤، ص٣٢، سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٧٠، ص٧١، عبد السلام جمعه محمد: المرجع السابق، ص٢١٧.

[٤٢] العبدرى: المصدر السابق، ص ٣٥١، المقريزى: المصدر السابق، جـ:١، ص٢١٦، ص٢١٧، سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٧٠، ص٧١، عبد السلام جمعه محمد: المرجع السابق، ص٢١٧.

[٤٣] العبدرى: المصدر السابق، ص٢١٠ وما بعدها.

أخلاقهم سيئة، وقلوبهم تغمرها الأحقاد، لا يُرجى فيها خير أو صلاح. وأرجع ذلك إلى انتشار الشر والفساد فيها– أى فى قلوبهم–، مضيفًا أنهم لا يُبدون اهتمامًا بالغريب، بل لا يرونه– حسب تعبيره–، وإن رأوه، قابلوا حضوره بوجوه متجهمة، وكلامٍ مبهم "كأنهم من العجم"، على حد وصفه[٤٤].

ويتابع العبدري تصويره السلبي، فيذكر أن الحسد مستشرٍ بينهم، حتى إنه إذا ذُكر أحد الفضلاء أمامهم، أصابهم من الحسد ما يشبه الحُمّى، فيلزمون الصمت، لا عن تواضع أو ترفع، بل عن حقد دفين، حتى ليعدّ أحدهم صمته راحة. ثم يختتم هذا الجزء من وصفه بالقول إنهم يتعاونون على الفساد، ويغشّون في الكيل والميزان، لا سيما مع الغرباء، الذين يجعلونهم هدفًا لاستنزاف الأموال[٤٥].

وهنا نتوقف للرد على هذا الجزء من أحكام العبدري، تمهيدًا لمواصلة تحليل بقية ملاحظاته عنهم.

لقد جانب العبدري الصواب في كل ما رمى به أهل الإسكندرية؛ فهُم ليسوا رعاعًا كما ادعى، بل أصحاب حضارة ضاربة الجذور، منذ تأسيس المدينة عام ٣٣١ق.م على يد الإسكندر الأكبر، الذي جعلها عاصمة لمصر[٤٦]، كانت الإسكندرية كالبوتقة التي التقت فيها أجناس شتى وفدت من آسيا وأوروبا، فاختلطت هذه الشعوب حتى صارت عنصرًا واحدًا، وجعلت منها في الوقت نفسه مركزًا للالتقاء بين ثلاث قارات، وموطنًا لهذه الجماعات المتنوعة. وقد أسهم هذا التلاقي، فضلًا عن المصريين أنفسهم، في بناء حضارة جديدة امتزجت فيها ثقافات متعددة، شكّلت نسيجًا حضاريًا فريدًا[٤٧].

وقد بلغت الإسكندرية أوج ازدهارها وثرائها في القرن الثالث قبل الميلاد، أي في العصر البطلمي، حيث أصبحت مقصدًا للطامحين إلى الرفعة أو الثراء أو الشهرة. ومنذ وقت مبكر، اجتذبت المدينة شعوب حوض البحر المتوسط، فضمّ المجتمع السكندري،

---

[٤٤] العبدرى: المصدر السابق،ص٢١٤، ص٢١٥.

[٤٥] العبدرى: المصدر السابق، ص٢١٥.

[٤٦] للمزيد عن نشأة الإسكندرية انظر: سليم حسن: موسوعة مصر القديمة، جـ:١٤، مؤسسة هنداوى سى آى سى، د. ت، ص٣٨ وما بعدها، زكى على: الإسكندرية فى عهد البطالمة والرومان، مطبعة دار المستقبل، د. ت، ص٢ وما بعدها.

[٤٧] زكى على: المرجع السابق، ص١٧.

(ISSN: 2536- 9555)

إلى جانب المصريين والإغريق، سوريين ورومانيين وإيطاليين وقرطاجيين وغيرهم. وظلّ هذا الطابع المختلط السمة الغالبة على المجتمع السكندري طوال عصري البطالمة والرومان(٤٨).

وفي العصر الإسلامي، ظلّت الإسكندرية مركزًا للإشعاع الثقافي والحضاري؛ ورغم أنها لم تتخذ عاصمة أولى لمصر في هذا العصر، فقد حافظت على مكانتها كعاصمة ثانية، واستمرّت في أداء دورها البارز الذي لعبته في العصور السابقة(٤٩). وقد أولاها الخلفاء وولاة مصر عناية خاصة باعتبارها من أهم الثغور الإسلامية، مما ساهم في نموّها وازدهار عمرانها في العصر العربي الأول، حيث استقر بها عدد كبير من العرب(٥٠).

نظرًا للمكانة الاستراتيجية التي تمتعت بها الإسكندرية على الصعيدين الحربي والعمراني، فضلًا عن أهميتها الاقتصادية، أوشك خلفاء العصر الإسلامي الأول على معاملتها كإمارة خاصة، فكانوا يسندون ولايتها إلى أمراء يكادون يستقلون عن سلطة ولاة مصر؛ ويُستدل على ذلك بما حدث في عهد أحمد بن طولون، الذي تولى حكم مصر كلّها باستثناء الإسكندرية، فلما توفي بكباك وعُيّن أماجور خلفًا له، أُلحِقت الإسكندرية بسلطته(٥١).

وفي العصر الفاطمي، أولى الفاطميون الإسكندرية عناية كبيرة، فازدهرت ازدهارًا عظيمًا(٥٢). كما نالت المدينة اهتمام الأيوبيين، إذ أولاها صلاح الدين الأيوبي(٥٣)

---

(٤٨) مصطفى العبادى: مجتمع الإسكندرية فى العصر البطلمى، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٥م، ص٣٢.

(٤٩) جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف، القاهرة، د.ت، المقدمة.

(٥٠) جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص٣٦.

(٥١) جمال الدين الشيال: الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، ١٩٤٩م، ص ٢١٥، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، ص٣٨.

(٥٢) عن عناية الفاطميون بالإسكندرية انظر: جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، ص ٤١ وما بعدها.

وخلفاؤه عنايتهم[٥٤]، وكان لذلك أبلغ الأثر في تقدمها ورفاهية سكانها وازدهار عمرانها[٥٥].

أما في العصر المملوكي، وهو العصر الذي وافق قدوم العبدري إلى مصر، فقد ألقت الأحداث السياسية التي شهدها العالم الإسلامي– قبيل قيام الدولة المملوكية وخلال نشأتها– بظلالها على مصر ومدنها الكبرى، ولا سيما مدينة الإسكندرية، إذ اجتاح المشرقَ الإسلاميَ خطرُ المغول، فدمّروا بلادًا بأكملها في العراق والشام، وقُتل فيها عدد كبير من السكان، مما دفع الكثيرين إلى النزوح نحو مصر، التي كانت آنذاك تنعم بنظام سياسي راسخ، وجيش قوي يردع التهديدات الخارجية[٥٦].

كما ساهم استمرار الوجود الصليبي على سواحل بلاد الشام في دفع المزيد من السكان نحو الهجرة إلى مصر[٥٧]؛ ومن ناحية أخرى كانت المعاهدات التى عقدها المنصور قلاوون مع كل من ملك قشتالة[٥٨]، وملك أرجون وأخيه ملك صقلية[٥٩]، ومع جنوة[٦٠]، والبندقية[٦١]، بالغ الأثر فى نشاط الحركة التجارية بين مصر وتلك الدول، فصارت الإسكندرية باعتبارها من أكبر المراكز التجارية فى مصر فى عصر المماليك[٦٢]، مقصدًا للتجار الأوربيين الذين أقاموا فيها على هيئة جاليات[٦٣]، وكان

---

[٥٣] جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص ٦٤ وما بعدها.

[٥٤] جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص٧٥ ومابعدها.

[٥٥] جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص ٧١.

[٥٦] قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، ط:١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٥٧.

[٥٧] أمال رمضان عبد الحميد: الحياة العلمية فى الإسكندرية فى العصر المملوكى، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ١١٠.

[٥٨] محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص٢٦٢.

[٥٩] انظر نص هذه المعاهدة: ابن عبد الظاهر، محى الدين(ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م): تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق: د.مراد كامل، وزارة الثقافة والارشادالقومى، الجمهورية العربية المتحدة، د. ت، ص١٥٦ وما بعدها.

[٦٠] ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص ١٦٥ وما بعدها.

[٦١] محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص٣٣٩.

[٦٢] محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص٣٣٦.

(ISSN: 2536- 9555)

احتضان الإسكندرية لهذا التنوع السكاني والثقافي، كما عهدها التاريخ، دليلًا على ما بلغه أهلها من رقي حضاري، إذ أسهم تفاعل هذه الجنسيات المختلفة في إثراء الحياة الاجتماعية والفكرية بالمدينة(٦٤).

أما قوله عن أهل الاسكندرية بأن:" الغريب بينهم نكرة لا تتعرّف، إن رأوه زادوا الوجوه جهامة ونكروا منها ما قد نكّرته الدّمامة والذّمامة..."(٦٥)، فيبدو أنه يُعبّر عن خيبة أمله الشخصية من برود الاستقبال الذي لقيه، وهو ما شكّل على الأرجح أحد أهم أسباب تحامله وسخطه عليهم، وقد أشار الدكتور حسين مؤنس إلى هذه المسألة، معتبرًا أن العبدري لو وجد من يرافقه ويؤانسه في غربته، ويخفف من وطأة الوحشة التي شعر بها خلال مقامه في الإسكندرية، لما اندفع إلى هذا القدر من التذمر والذم(٦٦).

وأما اتهامه لأهل الإسكندرية بتطفيف الميزان والمكيال، فلا يمكن التسليم به على إطلاقه، إذ كانت الأسواق آنذاك تخضع لرقابة دقيقة من قِبل المحتسب، الذي تولى الإشراف على عمليات البيع والشراء، والكشف عن حالات الغش والتلاعب في الموازين والمكاييل، يعاونه في ذلك عدد من المعاونين؛ وكان من يُضبط متلبسًا بالغش يُعاقب، كما كانت البضائع الفاسدة تُصادر وتُتلف(٦٧)..

وحتى لو افترضنا أن العبدري قد صادف أحد الغشّاشين، فإنها تظلّ حالة فردية لا يصحّ تعميمها على عموم التجار؛ غير أن العبدري، كما رأيناــ وسنرى في مواضع أخرى من هذا البحث– قد جعل من التعميم ديدنه.

وما يلبث أن يستطرد العبدرى كلامه– وإن شئت قل تحامله– على أهل الإسكندرية فيقول: "ومن الأمر المستغرب، والحال الّذي أفصح عن قلّة دينهم وأعرب، أنّهم يعترضون الحجّاج، ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم

---

(٦٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط:٩، ٢٠١٠م، جـ: ٢، ص٤٥٢.

(٦٤) عن الحياة العلمية فى الإسكندرية فى عهد المماليك انظر: أمال رمضان عبد الحميد: المرجع السابق، ص ١٦٩ وما بعدها.

(٦٥) العبدرى: المصدر السابق، ص ٢١٤، ص٢١٥.

(٦٦) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٥٢٥.

(٦٧) قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص٦٥.

الطّرق والفجاج، يبحثون عمّا بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النّساء والرّجال. وقد رأيت من ذلك يوم وردنا عليهم ما اشتدّ له عجبي، وجعل الانفصال عنهم غاية أربي، وذلك أنّه لمّا وصل إليها الرّكب جاءت شرذمة من الحرس. لا حرس الله مهجتهم الخسيسة، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة. فمدّوا في الحجّاج أيديهم، وفتّشوا الرّجال والنّساء وألزموهم أنواعا من المظالم، وأذاقوهم ألوانا من الهوان، ثم استحلفوهم وراء ذلك كلّه. وما رأيت هذه العادة الذّميمة، والشّيمة اللّئيمة، في بلد من البلاد، ولا رأيت في النّاس أقسى قلوبا، ولا أقلّ مروءة وحياء، ولا أكثر إعراضا عن الله سبحانه، وجفاء لأهل دينه من أهل هذا البلد، نعوذ بالله من الخذلان"[٦٨].

ويبدو أن ما دفع العبدري إلى صبّ جام غضبه على أهل الإسكندرية، هو ما تعرّض له من تفتيش عند دخوله إليها، وهو ما رواه بتفصيل شديد وبنبرة حانقة؛ وقد أشار هو نفسه إلى أن ابن جبير[٦٩] تعرّض لتجربة مماثلة عند قدومه إلى الإسكندرية في زمن الدولة الأيوبية[٧٠].

---

[٦٨] العبدرى: المصدر السابق، ص ٢١٦.

[٦٩] ابن جبير: هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، المكنّى بأبي الحسين، كان رحّالة وأديبًا بارزًا من أهل الأندلس، وُلد في بلنسية، ثم انتقل إلى شاطبة حيث برع في علوم الأدب وأبدع في نظم الشعر الرقيق، كما أتقن فنون القراءة والإقراء؛ وقد غلب عليه حبّ الترحال والتنقل، فقام بعدة رحلات إلى المشرق، كانت أبرزها رحلته الأولى بين عامي ٥٧٨-٥٨١هـ، التي دوّن مشاهداته خلالها في كتابه الشهير "رحلة ابن جبير"، وتُوفي في الإسكندرية عام ٦١٤هـ/١٢١٧م أثناء رحلته الثالثة. أنظر ترجمته: الذهبى، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م): سير أعلام النبلاء، تحقيق: نذير حمدان، مؤسسة الرسالة، ط: ٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، جـ:٢٢، ص٤٥ وما بعدها، ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحى (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م): شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط:١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، جـ: ٧، ص١١٠، الزركلى: المرجع السابق، جـ: ٥، ص٣١٩، ص٣٢٠.

[٧٠] العبدرى: المصدر السابق، ص٢١٥، ص٢١٦.

(ISSN: 2536- 9555)

غير أن الفرق بينهما واضح؛ إذ أرجع ابن جبير هذا التصرف إلى عمال الدواوين، ولم يُعمِّم استياءه لا على الحاكم– الذي نفى عنه علمه بالأمر– ولا على عموم أهل الإسكندرية[٧١].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدولة المملوكية كانت في ذلك الوقت، تخوض حربًا ضروسًا ضد كل من المغول والصليبيين، كما أشرنا آنفًا[٧٢]، وهو ما دفعها إلى اتخاذ إجراءات صارمة لحماية ثغورها وتأمين مداخلها.

وأما اتهام العبدري لأهل الإسكندرية بأنهم أكثر الناس إعراضًا عن دين الله وجفاءً لأهله، فقد جانبه الصواب في ذلك أيضًا؛ فقد وصف الهروِي[٧٣] الذي زار المدينة سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، الإسكندرية بأنها "من أكثر البلاد مساجد ومعابد، ما لا رأيته بغيرها"[٧٤]؛ ووافقه في ذلك ابن جبير، إذ قال إنها: "من أكثر بلاد الله مساجد، لا يمكن لأحد إحصاؤها بدقة"[٧٥]، وهو ما يعكس مدى تعلّق أهلها بالشعائر الدينية.

كما امتدحها ابن بطوطة[٧٦] الذى زارها في القرن الثامن الهجري، واصفًا إياها بأنها: "الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن، الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصن، ومآثر دنيا ودين"[٧٧].

---

[٧١] ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ/١٢١٧م): رحلة ابن جبير، دار صادر– بيروت، د.ت، ص١٣، ص١٤، وجدير بالذكر أن الدولة الأيوبية كانت تحارب الصليبين، وكان ابن جبير قد قدم إلى مصر على متن سفينة من جنوة، فكانت تلك السفينة موضوع شك واتهام. شوقى ضيف: الرحلات، دار المعارف، ط:٤، ١٩٨٧م، ص ٧٢.

[٧٢] ذلك عند تعرضنا للحالة السياسية زمن المنصور قلاوون. انظر ص ١١.

[٧٣] هو أبو الحسن على بن أبى بكر، أصله من هراه وولد بالموصل، زار الكثير من البلاد، واشتهر بالسائح، توفى بحلب سنة ٦١١هـ/١٢١٤م. انظر ترجمته ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت– لبنان، ١٩٦٩م، جـ: ٣، ص ٣٤٦ وما بعدها.

[٧٤] الهروى، أبو الحسن على بن أبى بكر (ت٦١١هـ/١٢١٤م): الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: د.على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط:١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٤٧.

[٧٥] ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٧.

[٧٦] ابن بطوطة: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد، رحالة ومورخ، ولد ونشأ فى طنجة، كانت له ثلاث رحلات، تعد رحلته الأولى أهمهم وأطولهم حيث استغرقت أزيد من ربع قرن، بدأها ابن

فضلًا عن أن ابن جبير، رغم استيائه من واقعة التفتيش عند دخوله الإسكندرية، لم يوسّع حكمه ليشمل أهلها جميعًا، بل عاد إليها بعد ذلك، وأقام فيها حتى وفاته[٧٨]، وهو ما يدل على تعلقه بها وارتياحه لها، على خلاف ما صوّره العبدري.

وحين همَّ العبدري بإنهاء حديثه عن الإسكندرية بذكر من التقاهم من علمائها، نراه لم تلِن نبرته، بل واصل ذمَّه لأهلها، مصرحًا بأنه كان يتمنى أن يرى فيهم من المحاسن ما يرويه، أو من المعروف ما يبعثه على الشكر، لكن واقعه–ـ كما صوّره–ـ خالف رجاءه؛ ثم مضى في عبارته الشهيرة قائلًا:"ولو كان القبيح يُجمل بغير أوصافه، والناقص يُكمل بذكر أسلافه، لكان أهل الإسكندرية أجملَ الناس حُسنًا، وأكملهم في كل معنى، بوجود بعض الأفراد فيهم، وسُكنى الآحاد المبرّزين في العلم والدين بمغانيهم. ولكن الموتى إذا جاورهم الأحياء لم يحصل لهم بمجاورتهم الإحياء"[٧٩].

ومن الملاحظ أن العبدري، حتى عندما تخلى نسبيًا عن سخطه المعتاد وأثنى على وجود بعض العلماء في الإسكندرية، فإنه اختار الإشارة إليهم بعبارات التهوين مثل "بعض الأفراد" و"الآحاد"، ولم يذكر سوى ثلاثة فقط من علمائها المبرّزين الذين أخذ عنهم، وهم: زين الدين ابن المنير (ت٦٩٥هـ)[٨٠]، وأبو الحسن الغرافى (ت٧٠٤هـ)[٨١]، ومحيي الدين المازوني (ت٦٨٠هـ)[٨٢].

بطوطة سنة٧٢٥هـ/١٣٢٥م طاف خلالها بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق والهند والصين وغيرهم، اتصل بكثير من الأمراء والملوك، وعاد منها إلى فاس سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، وقد ودون رحلته فى كتابه المسمى "تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". انظر ترجمته: ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م): تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت– لبنان، ط:١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، جـ:١، مقدمة المحقق، العسقلانى: المصدر السابق، جـ:٥، ص٢٢٧، الزركلى: المرجع السابق، جـ:٦، ص٢٣٥.

[٧٧] ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ:١، ص٣٨.

[٧٨] انظر: ص٢٠، الحاشية(٢).

[٧٩] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٢٧.

[٨٠] العبدرى: المصدر السابق، ص ٢٢٨ ومابعدها. و زين الدين ابن المنير هو أبو الحسن على بن محمد بن منصور المالكى، الإمام الفقيه النظار، المحدث الراوية، العالم المتفنن، ولي قضاء الإسكندرية مُدَّة وَأفْتى وصنَّف ودرَّس. انظر ترجمته: الصفدى، صلاح الدين خليل بن أيبك

(ISSN: 2536- 9555)

ولا يبدو هذا التهوين من عدد العلماء إلا إمعانًا من العبدري في الحط من شأن الإسكندرية وأهلها، إذ كانت المدينة في ذلك الوقت تزخر بعدد كبير من كبار الفقهاء والمحدثين الذين قصَدهم طلاب العلم من أنحاء شتى، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: المكين الأسمر (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م)[٨٣]، وعبد الوهاب اللخمي (ت٦٩٦هـ/

(ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث– بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، جـ: ٢٩، ص٩٠، محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط:١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، جـ:١، ص ٢٦٩، ص٢٧٠.

[٨١] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٤٥ وما بعدها، وأبو الحسن الغرافى هو تاج الدين على بن أحمد بن عبد المحسن، كان عالما، فاضلا، محدثا، عابدا. انظر ترجمته: العسقلاني: المصدر السابق، جـ:٤، ص٢٠، الصفدى: المصدر السابق، جـ:٢٠، ص١٢٣، ص١٢٤، ابن العماد الحنبلى: المصدر السابق، جـ: ٨، ص ٢١.

[٨٢] العبدرى: المصدر السابق، ص ٢٦٧ وما بعدها، ومحيى الدين المازونى هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الزناتى، كان شيخا أديبا، واستاذ العربية فى وقته. انظر ترجمته: ابن شاكر الكتبى، محمد بن شاكر بن أحمد (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م): فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط: ١، ١٩٧٣م، جـ: ٣، ص٤٠٩، ص٤١٠، الصفدى: المصدر السابق، جـ: ٣، ص٢٨٩، ص٢٩٠، مخلوف:المرجع السابق، جـ:١، ص ٢٨٩.

[٨٣] هو أبو محمد اللخمى الإسكندرانى، شيخ القراء بالإسكندرية. أنظر ترجمته:، ابن رشيد السبتى، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت٧٢١هـ/١٣٢٤م): ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: د. محمد الحبيب ابن الخواجه، دار الغرب الإسلامى، بيروت– لبنان، ط:١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، جـ: ٥، ص٢٧وما بعدها، الذهبى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م): معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط: ١، ٤١٧هـ/١٩٩٧م، جـ: ١، ص ٣٧٠، السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية– عيسى البابي الحلبي وشركاه– مصر، ط: ١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، جـ: ١، ص ٥٠٥.

١٢٩٦م)[٨٤]، وشرف الدين بن الصواف (ت ٧٠٥هـ/١٣٠٥م)[٨٥]، وجمال الدين بن المكين (ت ٧٠٨هـ/١٣٠٩م)[٨٦].

وقد عكس ابن رشيد السبتي، في رحلته التي كانت قريبة زمنيًا من رحلة العبدري، صورة حية ومختلفة عن الحياة العلمية والثقافية في الإسكندرية، إذ مر بها عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م أثناء توجهه إلى الحج، ثم في طريق عودته عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، وكان حريصًا على حضور مجالس العلماء، والاستفادة من حلقاتهم، ولقاء فقهائها ومحدثيها، فجاءت رحلته زاخرة بسير العلماء الذين تلقى عنهم العلم، وذِكر مؤلفاتهم، الأمر الذي يعكس بوضوح ازدهار الحياة العلمية والثقافية الذي كانت تشهده الإسكندرية في تلك الفترة[٨٧].

ولعلّ ما ذكره الشاعر مجير الدين بن تميم (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)[٨٨] يعضد ما سقناه من دلائل على ازدهار مدينة الإسكندرية، إذ قال عنها:

---

[٨٤] هو عبد الوهاب بن حسن بن إسماعيل بن المظفر، كان ممن يرحل إليهم للسماع والأخذ عنهم، انظر ترجمته: ابن القاضى: أبو العباس أحمد بن محمد المكناسى (ت١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م): درّة الحجال فى أسماء الرّجال، تحقيق: د. محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث (القاهرة)– المكتبة العتيقة (تونس)، ط: ١، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، جـ:٣، ص١٤٩، ص١٥٠.

[٨٥] هو يحيى بن أحمد بن عبد العزيز، مقرئ الإسكندرية سمع منه أعلام عصره كالسبكى والذهبى وابن رشيد. انظر ترجمته: ابن رشيد السبتى: المصدر السابق، جـ: ٥، ص٣٨٩ وما بعدها، ابن الجزرى، شمس الدين أبى الخير بن محمد (ت٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م): غاية النهاية فى طبقات القراء، طبعة اعتمدت على أول نسخة عنى بنشرها ج. برجستراسر عام ١٩٣٢م، دار الكتب العلمية– لبنان، ط: ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، جـ:٢، ص ٣١٩، ص ٣٢٠، ابن القاضى: المصدر السابق، جـ:٣، ٣٢٨، ابن العماد الحنبلى: المصدر السابق، جـ: ٨، ص٢٥.

[٨٦] هو أبو عبد الله محمد بن المكين بن الطاهر بن إسماعيل، كان محدثا، سمع منه غير واحد من مشاهير الإسكندرية. انظر ترجمته: ابن العماد الحنبلى: المصدر السابق، جـ:٨، ص٣٤.

[٨٧] ابن رشيد السبتى، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت٧٢١هـ/١٣٢٤م): ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨١، جـ: ٣، ص ٧ وما بعدها، جـ: ٥، ص ٣٨١ وما بعدها.

[٨٨] مجير الدين بن تميم: هو محمد بن يعقوب بن على، شاعر، من أمراء الجند أصله من دمشق، واستوطن حماة، وخدم صاحبها الملك المنصور. انظر ترجمته: الذهبى، شمس الدين أبو عبد الله

(ISSN: 2536- 9555)

لمّـــا قصـــدت ســـكندريّة زائـــرا مـــلأت فـــؤادى بهجـــة وســـرورا

مـــا زرت فيهـــا جانبـــا إلّا رأت عينـــاى فيهـــا جنّـــة وحريـــرا[٨٩]

ومما تجدر الإشارة إليه أن مدينة الإسكندرية كانت تُعدّ من الثغور المرابطة، التي تتصدى لأي خطر يهدد مصر من ناحيتها الغربية، ولهذا أولاها السلطان المنصور قلاوون عناية خاصة؛ إذ أوصى ابنه الأشرف خليل بأن يوافيه بأخبار الروم من جهتها على الفور، وأكّد عليه أن يأمر والي الإسكندرية باليقظة والاستعداد، وفق ما جرت عليه العادة[٩٠].

أهل القاهرة:

أما أهل القاهرة، فلم يكونوا أوفر حظًا من أهل الإسكندرية من سهام النقد التي أطلقها العبدري، بل إن ما أورده في حقهم جاء أشد وقعًا وأكثر حدّة، إذ لم يكتفِ بوصفهم بأقذع العبارات، بل بالغ في إلصاق أبشع الصفات بهم، فصوّر القاهرة على أنها تضم "حثالة العباد"، وأنها "وعاء لنفاية البلاد"، ومستقر لأهل الشقاق والنفاق والعناد والإلحاد؛ ونعت أهلها بالحسد والغش، ثم استرسل في هجائهم إلى أن شبّه القاهرة بسوق نصب فيها الشيطان رايته، واتخذ من أهلها أتباعًا، اجتمعوا على سوء الخلق ورفض الوفاق؛ وقد ساق من الأوصاف ما لا يكاد يُحصى، فنسب إليهم اللؤم والبخل، والجبن والجهل، والرعونة والقبح والركاكة، حتى زعم أن الكرم يمشي بينهم وجِلًا متخفيًا، وأن النُّسك لا يُظهره أحد منهم إلا ابتغاء مصلحة شخصية. وادّعى أن المتعلمين فيهم يبذلون

محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمرى، دار الكتاب العربى، بيروت، ط:٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، جـ:٥١، ص٢٠٣ ومابعدها، الزركلى: المرجع السابق، جـ:٧، ص١٤٥.

[٨٩] ابن تغر بردى، جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، جـ:٦، ص٣٤٧.

[٩٠] شافع بن على، الكاتب العسقلانى المصرى(ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م): الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق: أ.د/ عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط:١٤١٨،١هـ/١٩٩٨م، ص ١٢٢.

جهدهم للاستيلاء على أموال الأيتام، وأن أبواب السلطان قد ازدحمت بالعلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين طمعًا في الهبات، وأنهم نشؤوا على حب الدنيا، وجعلوا الرياء وسيلة لتحقيق مآربهم، كما لم يسلم سلوكهم اليومي من هجائه، فوصفهم بقلة الحياء، وبالفحش في القول، وبانعدام التستر عند قضاء الحاجة وتناول الطعام(٩١).

ولعلّ ما ذكره العبدري عن أهل القاهرة يُظهر بجلاء مدى تحامله عليهم، وشططه في ذمّهم، ووصفهم بما ليس فيهم؛ فقد كانت القاهرة في تلك الفترة، وما سبقها وما تلاها، منارةً للإسلام، ومركزًا علميًا وحضاريًا بارزًا، احتضن كوكبة من أفاضل العلماء والفقهاء والأدباء والمفكرين، وكانت قبلةً لطلاب العلم يفدون إليها من مختلف الأقطار، لما لها من مكانة راسخة؛ وقد تزعّمت مصرُ، بفضل القاهرة، قيادةَ العالم الإسلامي فكريًا وحضاريًا، لاسيما بعد سقوط بغداد على يد التتار، حيث نزح إليها عدد كبير من العلماء، حاملين معهم علمهم وكتبهم، فاحتفى بهم أهل مصر، ورحّب بهم حكّامها، كما كان الحال أيضًا مع الوافدين من الأندلس بسبب الهجمات النصرانية، أو مع علماء المغرب الذين كانوا يمرّون بمصر في طريقهم إلى الحج، فيفيدون بعلمهم، ويخلّفون آثارًا علميةً قيّمة(٩٢).

وقد تعاظمت مكانة مصر في العالم الإسلامي، وازدادت إشعاعًا دينيًا وعلميًا، بعد أن نجح المماليك في إحياء الخلافة العباسية على أرضها؛ فعظم شأنها، وكثرت فيها شعائر الإسلام، وساد المذهب السُني، فصارت موطنًا لسكنى العلماء، ومحطّ رحال الفضلاء(٩٣).

وقد ساهم في هذا الازدهار العلمي ما أبداه المماليك من اهتمام بالغ بالمؤسسات التعليمية، إذ أنشأوا عددًا كبيرًا من المدارس في القاهرة وغيرها من المدن المصرية؛

---

(٩١) العبدرى: المصدر السابق، ص٢٧٦ وما بعدها.

(٩٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة،١٩٩٢م، ص١٥٧، محمد زغلول سلام: الأدب فى العصر المملوكى، دار المعارف، القاهرة، د. ت، جـ: ١، ص ١٠٦، عوض الغبارى: ظاهرة التأليف الموسوعى فى العصر المملوكى فى مصر من منظور حضارى أدبى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج: ٦١، ع: ٣، يوليو ٢٠٠١، ص ١٠٠.

(٩٣) السيوطى: المصدر السابق، جـ: ٢، ص٩٤.

(ISSN: 2536- 9555)

ويكفي للدلالة على ذلك ما ذكره ابن بطوطة من أن عدد المدارس فيها لا يُستطاع حصره لكثرته[٩٤].

وقد أشار ابن خلدون إلى عِظم المكانة العلمية والحضارية التي بلغتْها مصر في عصر المماليك، فقال: "واختصّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة؛ ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أمّ العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصّنائع"[٩٥].

ولم يكن لمصر أن تتبوأ هذه المكانة العظيمة بين الأمم وتتفوق علميًا وحضاريًا، إلا بما اتصف به أهلها من رقيّ أخلاقي ومبادئ سامية، وهو ما أكده الإدريسي، الذي زارها في القرن السادس الهجري، فوصف أهلها بأن لهم "همم سامية ونفوس نقية عالية"[٩٦]، وذكر أيضًا أن فيهم "رفاهة وظرف شامل وحلاوة"[٩٧]، وأيّده في ذلك الزهري المعاصر له، فقال: "وأهل مصر وذواتها أرق نفوسا"[٩٨]، كما عبّر ابن بطوطة عن انطباعه عنهم بقوله: "أهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو"[٩٩].

ويواصل العبدري ذمّه لأهل القاهرة، فيزعم أنهم يكرهون الغريب، ويؤكد أنه عاين هذا الأمر بنفسه حين شهد مشادّة وقعت بالحجاز بين أحد المصريين ورجل غريب، فتجمّع جمعٌ من المصريين وانضمّوا إلى مواطنهم ضدّ الغريب؛ وقد شبّه هذا التصرّف بما تفعله الكلاب إذا رأت كلبًا غريبًا بين ظهرانيها[١٠٠].

غير أن هذا المشهد الذي أورده العبدري لا ينهض دليلًا كافيًا على كراهية المصريين للغريب، بل على العكس، يُظهر مدى ما بينهم من تلاحم وتآزر في الغربة،

---

[٩٤] ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ:١، ص٥٦، سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص١٥٨.

[٩٥] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط:٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مج: ١، ص ٧٤٩.

[٩٦] الإدريسى: المصدر السابق، مج:١، ص٣٢٣.

[٩٧] الإدريسى: المصدر السابق، مج:١، ص٣٢٤.

[٩٨] الزهرى، أبى عبد الله محمد بن زيد بن أبى بكر (ت أواسط القرن ٦هـ/١٢م): كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت، ص ٥٠.

[٩٩] ابن بطوطة: المصدر السابق، جـ:١، ص ٥٥.

[١٠٠] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٧٨.

وهو أمرٌ مألوف في سلوكيات المجتمعات ذات الروابط القوية، ولو تحلى العبدري بشيء من الإنصاف، لكان بوسعه أن يرى فى هذا الموقف دلالة على قوة التضامن الاجتماعى، لاعلى كراهية الآخر، إلا أنه كما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا[١٠١]

وإذا كان العبدري قد أسرف في إطلاق الأحكام على المصريين بعبارات تتسم بالتحقير الشديد، فإن هذا لم يكن الحد الأقصى من ذمه لهم، بل تجاوز ذلك إلى تعميم الحكم على أهل القاهرة بأشد الصور قسوة، مدعيًا أنه لم يرَ في جميع البلاد التي زارها، من المغرب الأقصى والأندلس، من يُضاهي أهل القاهرة في سوء الأخلاق، ولا في إفريقية وبرقة والحجاز والشام، فهم أذلّ الناس أخلاقًا، وأكثرهم لؤمًا وحسدًا، ضعيفو النفوس، قساة القلوب، يمارسون الخيانة والسرقة، ويعاملون الغريب بجفاء، فحق للمدينة

---

(١٠١) نُسب هذا البيت فى معظم المصادر إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب، أنظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م): الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط.٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، جـ٣، ص ٢٣٦، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م): عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، جـ٣، ص١٦، المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٥هـ/٨٩٨م): الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، مج: ١، ص١٧٢، التادلي، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي (ت ٦٠٩هـ/١٢١٢م): الحماسة المغربية (مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب)، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت– لبنان، دار الفكر دمشق– سورية، ط:١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، جـ:٢، ص١٢٤٠، ص١٢٤١، الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت– لبنان، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م،جـ:١٤، ص١٠٢، القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب السلطانية، القاهرة، ١٣٣٤هـ/١٩١٦م، جـ:٩، ص ١٩٦، وقد نُسب هذا البيت ايضًا إلى الإمام الشافعى، الشافعى، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت٢٠٤هـ/٨٢٠م): ديوان الإمام الشافعى، شرحه وضبط نصوصه وقدم له: د.عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت– لبنان، د. ت، ص١٢٣.

(ISSN: 2536- 9555)

أن تجمع أخلاق العبيد وأحوال الزنادقة لاسيما وأن مؤسسها عبد الزنادقة– جوهر الصقلى– غلام العبيديين[١٠٢].

لقد بلغ تحامل العبدري على القاهرة حدًّا جعله لا يفرّق بين أصل تأسيسها الفاطمي وبين واقعها المملوكي الزاهر، حتى نعت جوهر الصقلي– مؤسسها– بأنه "عبد الزنادقة". ومثل هذا الوصف لا يمكن اعتباره قراءة رحال منصف، إذ إن العبدري لم يكن محايدًا، وإنما رحّالة سجّل انطباعاته محكومة بميوله المذهبية؛ ومن ثمّ فإن إطلاقه هذا النعت يعكس موقفًا جدليًّا في سياق الخصومة العقائدية، أكثر مما يعكس تقويمًا حضاريًّا أو تاريخيًّا للمدينة؛ فكيف يُعقل أن تُدان القاهرة، وهي في عصر المنصور قلاوون عامرة بالعلماء والمدارس والجوامع والأسواق، لمجرّد أن نشأتها ارتبطت بالفاطميين الذين انقضى سلطانهم قبل دخوله إليها بما يزيد على قرن من الزمان؟ إن في ذلك إسقاطًا لموقف فقهي– مذهبي على واقع حضاري حيّ، وهو ما أوقع العبدري في مفارقة صارخة بين القول والواقع.

مضى العبدري في هجائه لأهل القاهرة حتى صوّرهم بأنهم اتخذوا الفحش فى القول سِمَةً غالبة، والحسد المؤرّث للمرض طبعًا ملازمًا، حتى غدا مشهد المشايخ في الطرقات مشوبًا بالتخاصم والتلاعن أغلب الأوقات، ويزيد على ذلك فيرى أن ما يلحظه من صبيانهم أهون مما يشاهده من كهولهم وشيوخهم، مستشهدًا بما ذكره البكرى عنهم بأنهم:" أعقل النّاس صغارًا، وأحمقهم كبارًا"[١٠٣].

وهنا نجد أن كلام العبدري– كعادته في التعميم– لا يعدو أن يكون تعميمًا جائرًا، لا ينسجم مع طبيعة أي مجتمع، ولا يعكس واقع التنوع الذي تتسم به الجماعات البشرية؛ فضلًا عن أن ما استند إليه من أقوال البكري يُرجَّح أن أصله منسوب إلى عمرو بن

---

[١٠٢] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٧٨.

[١٠٣] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٧٨، البكرى، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م): المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامى، بيروت– لبنان، ١٩٩٢م، جـ:١، ص٤٩٢ حيث نسب هذه القول إلى عمرو بن العاص رضى الله عنه، بينما نسبه ص٥٥ إلى الجاحظ، كما نجد أن صاحب كتاب الاستبصار قد نسبه إلى الجاحظ أيضًا. كاتب مراكشى (توفى ق٦هـ/١١م): الاستبصار فى عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦م، ص ٤٩، ص٥٠.

العاص رضي الله عنه، لكن بصياغة مختلفة وأكثر إنصافًا، إذ جاء فيه: "أهل مصر أعقل الناس صغارًا، وأرحمهم كبارًا"[١٠٤].

وإمعانًا من العبدري في التحقير من شأن المصريين، استحضر كذلك ما أورده البكري عن أبي دلامة[١٠٥] أنه لما سُئل عن مصر بعد عودته منها قال: "ثلثها كلاب، وثلثها تراب، وثلثها دواب، فقيل له: فأين النّاس؟ فقال: في الثّلث الأوّل"[١٠٦].

غير أن التتبع في معظم كتب التراجم[١٠٧] التي تناولت سيرة أبي دُلامة لم يُسفر عن أي دليل يفيد أنه زار مصر أصلًا، وهو ما يُضعف من مصداقية هذه الرواية، ويجعل الاستناد إليها في تصوير أحوال المصريين أمرًا محلّ شك كبير.

---

[١٠٤] الأبشيهى، شهاب الدين محمد (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م): المستطرف فى كل فن مستظرف، تحقيق: محمد خير طعمه الحلبى، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط:٥، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٢٨.

[١٠٥] أبو دلامه: هو زند بن الجون (ت١٦١هـ/٧٧٨م)، مولى لبنى أسد، كان شاعر فكهًا مرحًا نشأ فى الكوفة، واتصل بالخلفاء العباسيين. للمزيد عنه أنظر: الدينورى، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م): الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، جـ:٢، ص٧٦٤ وما بعدها، ابن المعتز، عبد الله بن محمد(ت ٢٩٦هـ/٩٠٨م): طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ط:٣، ص ٥٤ وما بعدها، ابن الجوزى، أبو الفرج عبد الرحمن بن على(ت٥٩٧هـ/١٢٠١م): تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش، تحقيق: مرزوق على إبراهيم، دار الشريف، الرياض، ط:١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص١٧٥، ص١٧٦، سبط ابن الجوزى، شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م): مرآة الزمان فى تواريخ الأعيان، تحقيق: أنور طالب وآخرون، دار الرسالة العلمية، دمشق– سوريا، ط:١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، جـ:١٢، ص٣٢٣ وما بعدها، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت– لبنان،١٩٠٠م، جـ:٢، ص٣٢٠ وما بعدها، المستعصمى، محمد بن أيدمر (ت٧١٠هـ/١٣١٠م): الدر الفريد وبيت القصيد، تحقيق: كامل سلمان الجبورى، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، جـ:٤، ص٣٠٣، ص٣٠٤، ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمران(ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م): البداية والنهاية، التحقيق: على شيرى، دار إحياء التراث العربى، ط:١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، جـ:١٠، ص١٤٣، ص١٤٤.

[١٠٦] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٧٩، وانظر البكرى: المصدر السابق، جـ:١،ص٥٠٥.

[١٠٧] انظر الصفحة السابقة، الحاشية رقم(٢).

(ISSN: 2536- 9555)

ومما أورده العبدري في معرض انتقاده لأهل مصر قوله: "وقلّما ترى من أهلها رجلًا صافي اللون إلا إن كان من غيرها. ولا رجلًا طلق اللسان، واللكنة فيهم فاشية، وجمهورهم يجعل القاف والكاف همزة، وقد سمعت شخصًا منهم في التلبية يقول: لبّيك اللهم لبّيك، ويجعل كافاتها كلّها همزات، فلو سمعته سمعت كلامًا مضحكًا"(١٠٨).

غير أن هذا الزعم مردود عليه، لأنه يقوم– كعادة العبدري– على ملاحظات يغلب عليها طابع التعميم والانطباع الشخصي أكثر من كونه توصيفًا موضوعيًا لواقع المجتمع؛ ذلك أنّ مصر بحكم موقعها الجغرافي كانت ملتقى لشعوب متباينة الأصول، وقد أكّد هذا المعنى البلوي الذي زارها سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م(١٠٩)، إذ أشار إلى أنّه رأى فيها أجناسًا شتّى(١١٠)، ومن ثمّ فإن اختلاف ألوان السكان لا يُعَدّ قدحًا، بل هو سمة طبيعية لمجتمع منفتح متنوّع.

وأما ما أورده العبدريّ من ملاحظةٍ تتعلّق بضعف طلاقة اللسان وظهور اللكنة عند بعض المصريين، فلا يُمكن حمله على أنه طعن أو منقصة في حقيقتها، وإنما يُفهم في إطار الخصائص الصوتية المميزة للهجة المصرية، وتُعدّ هذه السمات جزءًا من التطور الطبيعي للهجات، لا صلة لها بسلامة العقيدة أو استقامة الأخلاق؛ وفي مقدمة هذه الظواهر الصوتية ما عُرف بظاهرة قلب القاف همزة، وهي قاعدة مطّردة في لهجات أهل المدن ومعظم مناطق الوجه البحري، وقد سجّلها أحمد تيمور في معجمه الكبير مستشهدًا بنصّ العبدري نفسه(١١١)، وهو ما يحوّل ملاحظته من باب التهكّم إلى شاهد لغوي ذي قيمة علمية معتبرة.

ويذكر العبدري أنّ عقوق الوالدين كان شائعًا بين المصريين– على حدّ قوله– مستشهدًا بموقفين عاينهما في طريق الحج؛ أولهما أنّه رأى رجلًا من أهل مصر كان إذا غضب من أمه لعنها ولعن أباه، وثانيهما أنّه سمع أحد المصريين ينادي رفيقه، فلما

---

(١٠٨) العبدرى: المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(١٠٩) البلوى: المصدر السابق، جـ:١، ص٢١٥.

(١١٠) البلوى: المصدر السابق، ص٢١٦.

(١١١) أحمد تيمور، أحمد بن إسماعيل(ت١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م): معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، تحقيق: د.حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط:٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، جـ:١، ص٧٤.

حضر لعنه ولعن أباه، فردّ عليه الآخر بمثل قوله، ثم اشتبكا زمناً، غير أنّهما ما لبثا أن جلسا معًا للأكل(١١٢).

إنّ ما أورده العبدري من رواية تتعلّق بعقوق الأبناء للآباء لا يعدو أن يكون حادثةً عابرة رآها أو سمعها في طريق سفره، ثم ضخّمها ليجعلها سِمَةً عامة للمصريين؛ غير أنّ مثل هذا الطرح يقوم على تعميمٍ مخلّ يفتقر إلى الموضوعية، ولا ينسجم مع المعطيات التاريخية والاجتماعية لمصر، إذ يُعَدّ برّ الوالدين من أصول القيم الراسخة في الشخصية المصرية منذ أقدم العصور، فقد كشفت الشواهد الأثرية الفرعونية عن عنايةٍ بالغة بمكانة الوالدين، مؤكِّدةً على توقيرهما وإجلالهما والبرّ بهما في حياتهما وبعد وفاتهما، كما يظهر في أدب الحكمة أنّ برّ الوالدين عُدّ من القيم الأخلاقية المركزية، حيث شُدِّد فيه على حسن معاملتهما والحرص على تلبية احتياجاتهما، بما يعكس رسوخ هذه الفضيلة في البناء القيمي للمجتمع المصري القديم(١١٣).

وقد جاءت التعاليم الإسلامية لتعزّز هذا المعنى وتؤكده، إذ قرن الله تعالى بين عبادته والإحسان إلى الوالدين في غير موضع، منها قوله تعالى:﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(١١٤)، كما عدّ النبي ﷺ برّ الوالدين من أحبّ الأعمال إلى الله، ففي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود قَالَ: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي»(١١٥).

---

(١١٢) العبدرى: المصدر السابق، ص٢٧٩.

(١١٣) محمد شفيق غربال وآخرون: تاريخ الحضارة المصرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، مج:١، ص١٣٤وما بعدها، كريستان زيجلر، وحسان لوك بوفو: الفن المصرى، ترجمة: عادل أسعد الميرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨ م، ص٣٩.

(١١٤) سورة الإسراء، الآية ٢٣

(١١٥) البخارى، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م): الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه الشهير بـ صحيح البخارى، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط:١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، جـ:١، ص١١٢، رقم(٥٢٧)، مسلم، أبو

(ISSN: 2536- 9555)

كما أنّ صورة المجتمع المصري في العصر المملوكي تناقض ما ذهب إليه العبدري، إذ حظيت المرأة فيه بمكانة مرموقة ونصيب وافر من الاحترام، سواء كان ذلك داخل الطبقة الحاكمة أو عند طبقة العامة، و يكفي دلالةً على ذلك كثرة الألقاب التكريمية التي أُطلقت عليهنّ مثل: المصونة، والمعظمة، وست الخلق، وست الناس، وست الكل وما شابه ذلك(١١٦).

ومن ثمّ فإنّ ما أورده العبدري لا يعدو أن يكون تعميمًا جائرًا ومبالغةً بعيدة عن الإنصاف، تفتقر إلى الاستناد على حقائق موضوعية أو شواهد تاريخية موثوقة.

وإذا كان العبدري قد قصد بما أورده الطعن في أخلاق المصريين، فإنّ الرواية نفسها يمكن أن تُقرأ على نحوٍ مغاير؛ إذ تكشف واقعة الخصومة التي أعقبها اجتماع الرجلين سريعًا على الطعام عن طبعٍ اجتماعي يتّسم بحدة الانفعال وسرعة الغضب، غير أنّه يقترن بصفاء النفس وسرعة الرضا. وهو خُلق يعكس قدرة المصريين على تجاوز الخلافات العابرة، وإعلاء قيمة الألفة والمودة في علاقاتهم الاجتماعية.

ويذهب العبدري في مبالغاته إلى حدّ اتهام المصريين بتضييع المساجد والجوامع وإهمالها، حتى زعم أنّها تُشبه المزابل، وأنّ حصرها وحيطانها قد اسودّت من كثرة الأوساخ، بل ذكر أنّه صلّى الجمعة في أحد جوامعهم فرأى فيه أكوامًا من القاذورات؛ وزاد على ذلك قوله إنّ أهل مصر يعتقدون نجاسة مساجدهم، فلا يدخل أحدهم إليها إلّا بفرش حصير أو ثوب خاص يصلّي عليه، بل إنّ الإمام نفسه لا يصلي إلّا على فراش يُفرش له في المحراب. ومن ثمّ خلص العبدري إلى اتهامهم بالجفاء وقلّة الحياء من الله تعالى، حتى صرّح بأنّ المقام بينهم عسير لولا ما وصفه بـ "لطف الله في تملّك الأتراك لهم(١١٧).

غير أنّ هذه الدعوى تكشف عن قدرٍ من التناقض في خطاب العبدري، فهو من ناحية يصف أهل القاهرة بالإهمال وقلّة العناية بنظافة المساجد حتى جعلها موصوفة

الحسين مسلم بن الحاج (ت٢٦١هـ/٨٧٥م): صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، دار الحديث، القاهرة، ط:١،١٤١٢هـ/١٩٩١م، جـ:١، ص٨٩، رقم (٨٥).

(١١٦) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٤٣، ص ١٤٥، أحمد عبد الرازق: المرأة فى مصر المملوكية، الهئية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٦.

(١١٧) العبدرى: المصدر السابق، ص٢٨٠.

بالنجاسة، ومن ناحية أخرى يقرّ بأنّهم كانوا يحرصون على اصطحاب سُجّاد خاص عند حضورهم للصلاة. ولا شك أنّ مجرّد الحرص على إحضار السجّاد يدلّ على حسّ بالنظافة واعتناء بمكان العبادة، وهو ما يُسقط دعواه السابقة؛ ويزداد ضعف تصويره إذا وازنّا شهادته بما أورده البلوي في وصفه للقاهرة، حيث أبرز مكانة منابرها وما حفّ بها من مظاهر البهجة والجمال، قائلًا: "منابر قام السرور في منبر دوحها خطيبًا"[١١٨] فشبّه السرور بخطيب قائم على منابر دوحها؛ وهو تصوير ينمّ عن تقديرٍ واعتبارٍ لتلك المنابر، ويُظهر الوجه الحضاري للمدينة بعيدًا عن الصورة المتشائمة التي أراد العبدري تثبيتها.

أورد العبدري في وصفه لأهل مصر أنّهم يؤدّون صلاة العيد في المساجد أو في ساحة تحت القلعة بوسط القاهرة، دون أن يظهروا في ذلك مظهرًا عامًا للشعائر كما وردت في السُّنّة، وزاد على ذلك أنّه لم يسمع من أحدهم كلمة تُؤنس أو تُفصح عن مظهر من مظاهر الفرح[١١٩].

غير أنّ هذا التصوير لا يعكس حقيقة المشهد الاحتفالي في مصر، إذ كان العيد مناسبة كبرى تتجلّى فيها مظاهر البهجة العامة. فقد اعتاد المصريون إعداد أطباق الكعك وسائر أصناف الحلوى منذ أواخر شهر رمضان لتبادلها والتهادي بها يوم العيد[١٢٠]، كما كانوا يسهرون ليلة العيد حتى ساعة متأخرة في تهيئة الثياب وصقلها[١٢١]، وفي صباح يوم العيد يجتمع أهل الحيّ أمام منزل الإمام الذي يؤمّهم في الصلاة، فيزفّونه إلى المسجد ذهابًا وإيابًا، وهم يحملون القناديل ويجهرون بالتكبير على طول الطريق[١٢٢]، وإلى جانب ذلك، كان هناك الاحتفال الرسمي الذي يشارك فيه

---

[١١٨] البلوى: المصدر السابق، ص٢١٦.

[١١٩] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٨٠.

[١٢٠] المقريزى، تقى الدين أبى العباس أحمد بن على (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط:١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، جـ:٣، ص٧٠، سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص٢٠٨.

[١٢١] ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م): المدخل، دار التراث، القاهرة، د. ت، جـ:١، ص٢٨٩، سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٢٠٨.

[١٢٢] ابن الحاج: المصدر السابق، جـ:٢، ص٢٨٥، سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٢٠٩.

(ISSN: 2536- 9555)

السلاطين والقضاة وكبار رجال الدولة، بما يضفي على المناسبة طابعًا مهيبًا ومظهرًا عامًا للسرور[١٢٣].

ويبدو أنّ موقف العبدري إنما يُفسَّر في جانب منه بطبيعته الشخصية التى يغلب عليها قدر من الجفاء والتشدّد، وهو ما حال بينه وبين الاندماج في المجتمع المصري حتى في مناسبة كبرى كالعيد، حيث تغلب المظاهر العامة للفرح والسرور، ومن ثمّ انعكس هذا الانطباع الخاص في أوصافه، فبدت ملاحظاته أقرب إلى التعميمات السلبية منها إلى المشاهدة الموضوعية الدقيقة.

ويذكر العبدري أنّه نزل بالمدرسة الكاملية[١٢٤]، وهي مطلّة على السوق من مكان مرتفع، فلم يكد يهنأ بنومٍ بسبب ما يسمعه من صياح الباعة وضجيج الأسواق المتواصل طوال الليل؛ كما يضيف أنّ طعام أهل القاهرة– شريفهم ووضيعهم– إنما يُجلب في الغالب من الأسواق، الأمر الذي يسبّب ازدحامًا دائمًا وضغطًا شديدًا في الطرقات، حتى تظلّ مكتظّة بالناس والدوابّ، فيتحرّك الماشي فيها متحفّظًا خشية أن تطأه. ويرى العبدري أنّ شدّة الزحام تحول دون تمكّن الإنسان من التفرّس أو التأمّل، إذ يندفع الناس اندفاع السيل؛ ويروي حادثةً شخصيّة لتأكيد ذلك، إذ ضاعت له دابّة في الزحام وكان عليها رجل راكب، فلمّا تكاثر عليه الناس اضطرّ إلى النزول عنها، فاندفعت بين الجموع حتى غابت عن ناظريه، فكان ذلك آخر عهده بها[١٢٥].

ولكي يُثبت وجهة نظره في ذمّ هذا السلوك، ساق روايةً عن رسولٍ قَدِم من قِبَل ملك الروم إلى القاهرة في زمن الظاهر بيبرس، فأمر السلطان أن يُطاف به في أرجاء المدينة بعد العصر ليقف على كثافة عمرانها وحيوية أسواقها، فلمّا أتمّ جولته قال لمن حوله: "إنّ بلدكم هذا ضعيف. فقالوا: وكيف ذلك؟ أو ماترى المخلوق الذّي به؟ فقال لهم: إنّ هؤلاء جميعا ما خرجوا إلّا لشراء عشائهم من السّوق، ولو كان في ديارهم طعام لاستغنوا

---

[١٢٣] سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٢٠٩، ص٢١٠.

[١٢٤] المدرسة الكاملية: تقع بين القصرين، أنشأها السلطان الأيوبى الكامل محمد بن العادل فى عام ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، وتعرف بدار الحديث الكاملية، وهى ثان دار للحديث بعد الأولى التى انشأها الملك العادل نور الدين محمود زكى فى دمشق. المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ:٤، ص٢١٩ وما بعدها، السيوطى: المصدر السابق، جـ:٢، ص٢٦٢.

[١٢٥] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٨١.

عنه، ولو تعذّر السّوق عليهم لماتوا جميعا من الجوع"[١٢٦]؛ ثم يعود العبدري ليؤكد على اعتياد المصريين الأكل فى الأسواق، والطرقات، والمحافل، ذاكرًا أنه شاهد بنفسه بعض أكابرهم يقوم بذلك وهو ما عده العبدرى من القبح و سوء الأخلاق، مؤكدًا رأيه بحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم: "الْأَكْلُ فِي السُّوقِ دَنَاءَةٌ "[١٢٧].

ويبدو أن الأرق الذي شكا منه العبدري نتيجة صياح الباعة وضجيج الأسواق طوال الليل يعود في جانب كبير منه إلى نشأته في بيئة جبلية[١٢٨] اعتاد فيها صفاء الهواء وهدوء الطبيعة بعيدًا عن ازدحام المدن وضوضاء سكانها[١٢٩]، ومن ثمّ، فقد نظر بعين الاستنكار إلى ما ألفه أهل القاهرة من النشاط التجاري الدائم، وما يتصل به من أصوات الباعة وندائهم.

وأما ما عابه عليهم من أنهم يأكلون من الأسواق، فذلك لا يعد نقيصه إذ اعتاد غالبية المصريين– على اختلاف طبقاتهم– تناول الطعام من الأسواق[١٣٠]، وقد أكد ذلك

---

[١٢٦] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٨١، ص٢٨٢

[١٢٧] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٨٢. أما نص الحديث فهو:حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبلٍ، ثنا أبي أحمد بن حنبلٍ، ثنا محمد بن سليمان لوين، ثنا بقية بن الوليد، حدثني عمر بن موسى، حدثني القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الْأَكْلُ فِي السُّوقِ دَنَاءَةٌ» رواه الطبرانى، أبو القاسم سليمان بن احمد بن أيوب(ت٣٦٠هـ/٩٧١م): المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت، جـ:٨، ص٢٩٧، ص٢٩٨، رقم(٧٩٧٧)، ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله(ت٥٧١هـ/١١٧٥م): تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين أبى سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط:١،١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، جـ: ٤٥، ص٣٤٥. وهذا الحديث ضعيف حيث ذكر ابن القيم:"أحاديث النّهي عن الأكل في السوق كلها باطلة، قال العقيليّ: "لا يثبت في هذا الباب شيء عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم"، كما ضعفه الألبانى أنظر: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبى بكر بن أيوب(ت٧٥١هـ/١٣٥٠م): المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط:١، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص١٣٠، رقم(٢٩١).

[١٢٨] نقل الدكتور حسين مؤنس عن عبد السلام الناصرى صاحب الرحلة الناصرية تحليله لشخصيه العبدرى قائلا:" وما ذاك إلا أن الرجل بربرى من سكان الجبال لم يألف الناس ولا البحث عنهم والذهاب إليهم" حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٥٢٣.

[١٢٩] حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٥٢٣.

[١٣٠] سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص١٢٩، ص١٣٠.

(ISSN: 2536- 9555)

المقريزى إذ يقول عنهم: "يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشيا[١٣١]"، وأما استشهاده بما قاله رسول الروم فإننا نرد عليه بما ذكره صاحب كتاب تحفة الألباب حيث قال:" وفى مصر أن اهلها مستغنون عن كل البلاد، حتى لو ضرب بينها وبين الدنيا سور، تغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا"[١٣٢]. وأما الحديث الذى استشهد به لتعضيد رأيه وهو حديث "الْأَكْلُ فِي السُّوقِ دَنَاءَةٌ" فهو حديث ضعيف[١٣٣].

وهكذا، فإنّ ما اعتبره العبدري مظهرًا من الفوضى والضوضاء لم يكن إلا انعكاسًا طبيعيًا لحيوية القاهرة باعتبارها عاصمة الدولة المملوكية ومركزها السياسي والثقافى والتجاري، حيث تداخلت فيها الحركة الاقتصادية بالأنشطة العلمية والعمرانية، فغدت مدينة تضج بالحياة في ليلها ونهارها على السواء.

ثم أنكر العبدري على المصريين انصرافهم إلى ما اعتبره علم الفضول، وانشغالهم بالمعقول على حساب المنقول، ذاكرًا كثرة إقبالهم على دراسة المنطق، حتى توهّم أنهم يعتقدون أنّ من لم يُحسن هذا الفن لم يُحسن النطق، وزاد في نقده فذكر أنّهم قد جعلوا الاشتغال بالمنطق من أعظم شؤونهم، واتخذوه عُدّة يتوسلون بها لمواجهة النوائب والمصائب، حتى بالغوا في الإقبال عليه وتوسّعوا في موضوعاته، لدرجة أن ينفق أحدهم في تحصيله شطرًا كبيرًا من عمره[١٣٤].

غير أنّ هذا التعميم لا يوافق الواقع العلمي في مصر المملوكية، ولا ينسجم مع طبيعة الحياة الفكرية آنذاك؛ إذ لم يكن علم المنطق شائعًا بين عامة الناس، بل كانت الصدارة للعلوم الشرعية واللغوية التي ازدهرت في المدارس والمساجد الكبرى[١٣٥]، وقد زخرت كتب الرحالة بذكر أسماء كثيرٍ من العلماء الذين ذاع صيتهم ونهلوا هم انفسهم

---

[١٣١] المقريزى: المصدر السابق، جـ:١، ص٩٣

[١٣٢] أبو حامد الغرناطى، عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع (٥٦٥هـ/١١٧٠م): تحفة الألباب ونخبة الاعجاب، تحقيق: د. إسماعيل العربى، منشورات دار الأفاق، المغرب، ط:١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٧٦.

[١٣٣] انظر الصفحة السابقة، الحاشية (١)

[١٣٤] العبدرى: المصدر السابق، ص٢٨٤، ص٢٨٥.

[١٣٥] أمانى بنت سعيد الحربى: مصر من خلال كتابات الرحالة المغاربة فى القرنين السابع والثامن الهجريين/ ١٣-١٤م، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى ١٤١٦هـ/٢٠١٥م، ص٢٤٠ وما بعدها.

من علومهم[١٣٦]، ومن ثمّ، فإنّ ملاحظة العبدري– كما هو دأبه– لا تعكس سوى انطباع شخصي محدود، أكثر مما تعكس صورةً موضوعية للحياة العلمية في مصر.

الخاتمة:

إنّ ما دوّنه العبدري في رحلته لا يمكن النظر إليه بوصفه وصفًا أمينًا لأخلاق المصريين وعاداتهم، بل هو انعكاس لذهنية مشبعة بالأحكام المسبقة والتعميمات الجائرة، إذ مضى في هجائه حتى أوشك أن ينفي عنهم كل فضيلة، وهو أمر لا يقبله عقل ولا يقرّه منطق، إذ لا يُعقل أن يخلو شعب بأكمله– وفي قلبه القاهرة والإسكندرية– من خصلة محمودة أو خِلال كريمة.

وممّا يزيد العجب أنّ المصريين في العصر المملوكي كانوا يعيشون في بيئة عامرة بالعلماء والمدارس، غاصّة بالأسواق والأنشطة التجارية، نابضة بالحياة العلمية والاقتصادية، ومع ذلك لم تلتقط عين العبدري إلا ما يوافق ميله إلى التحقير والذم.

ولعلّ منشأ ذلك راجع إلى أثر البيئة التي تفتّح وعيه فيها في ربوع المغرب، حيث اعتاد السكون والصفاء، فوقف مشدوهًا أمام صخب القاهرة وزحامها، فعجز عن إدراك أنّ ذلك الضجيج لم يكن إلا انعكاسًا لحيوية مدينة كبرى تضجّ بالحركة، وتعيش نبضًا حضاريًا متصلًا لا يهدأ، فجاءت أحكامه أقرب إلى الانفعال منها إلى التبصّر، وأقرب إلى التحامل منها إلى الإنصاف.

ومع ذلك، فإنّ نصّه يظلّ ذا قيمة، إذ يتيح مجالًا رحبًا للنقد والتحليل، ويكشف كيف نظر بعض الرحالة إلى الآخر بعين مقيّدة بتراثهم المحلي وخلفياتهم الفكرية والمذهبية، وهنا تبرز أهمية قراءة مثل هذه النصوص لا باعتبارها حقائق مُسلَّمًا بها، بل بوصفها مادة قابلة للتحليل والنقد، تُفكَّك بنيتها، وتُكشَف دوافعها، وتُقارَن بما أورده غيرها من شهادات الرحالة السابقين والمعاصرين واللاحقين.

وهكذا، فإنّ الردّ على العبدري لا يقف عند حدود تفنيد مزاعمه، بل يتجاوز ذلك إلى تأكيد أنّ مصر– بشعبها وعاداتها اليومية– كانت ركيزةً من ركائز الحضارة الإسلامية، ومسرحًا لوجهٍ حضاري متنوّع لا يُدركه إلا من نظر بعين الإنصاف واتّسع أفقه لفهم اختلاف البيئات والثقافات.

---

[١٣٦] أمانى بن سعيد الحربى: المرجع السابق، ص٢٨٢ وما بعدها.

(ISSN: 2536- 9555)

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصـــادر

القرآن الكريم

- **الأبشيهى، شهاب الدين محمد(ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م):**
  - المستطرف فى كل فن مستظرف، تحقيق: محمد خير طعمه الحلبى، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط:٥، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- **ابن الأثير، على بن أحمد(ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م):**
  - الكامل فى التاريخ، دار صادر– بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- **الإدريسى، أبو عبد الله محمد بن محمد(ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م):**
  - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
- **الإدريسى، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤م):**
  - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، المجلد: ٢.
- **البخارى، محمد بن إسماعيل(ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م):**
  - الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه الشهير بـ صحيح البخارى، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط:١٤٢٢،١هـ/٢٠٠١م، الجزء:١.
- **ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م):**
  - تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت– لبنان، ط:١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، الجزء:١.
- **البكرى، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد(ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م):**
  - المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامى، بيروت– لبنان، ١٩٩٢م، الجزء:١.
- **البلوى، خالد بن عيسى(ت قبل سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م):**
  - تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، تحقيق: الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامى بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، د.ت، الجزء:١.
- **التادلي، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي(ت ٦٠٩هـ/١٢١٢م):**
  - الحماسة المغربية (مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب)، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت– لبنان، دار الفكر دمشق– سورية، ط:١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، الجزء:٢.

- **ابن تغر بردى، جمال الدين يوسف(ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م):**
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، الجزء:٦.
- **التيجانى، أبو محمد عبد الله بن محمد(ت حوالى٧١٧هـ/١٣١٧م):**
  - رحلة التيجانى، الدار العربية للكتاب، ليبيا– تونس، ١٩٨١م.
- **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م):**
  - الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط.٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، الجزء:٣.
- **ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد(ت٦١٤هـ/١٢١٧م):**
  - رحلة ابن جبير، دار صادر– بيروت، د.ت.
- **ابن الجزرى، شمس الدين أبى الخير بن محمد (ت ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩م):**
  - غاية النهاية فى طبقات القراء، طبعة اعتمدت على أول نسخة عنى بنشرها ج. برجستراسر عام ١٩٣٢م، دار الكتب العلمية– لبنان، ط: ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، الجزء:٢.
- **ابن الجوزى، أبو الفرج عبد الرحمن بن على (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م):**
  - تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش، تحقيق: مرزوق على إبراهيم، دار الشريف، الرياض، ط:١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- **ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد(ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م):**
  - المدخل، دار التراث، القاهرة، د. ت، الجزء:١.
- **أبو حامد الغرناطى، عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع(٥٦٥هـ/١١٧٠م):**
  - تحفة الألباب ونخبة الاعجاب، تحقيق: د. إسماعيل العربى، منشورات دار الأفاق، المغرب، ط:١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- **الحميرى، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت أواخر القرن ٩هـ/١٥م):**
  - صفة جزيرة الأندلس متنخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: ليفى بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧م.
- **ابن الخطيب، لسان الدين(ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م):**
  - الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة، د. ت، المجلد:١.
- **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م):**
  - ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط:٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، المجلد: ١.

(ISSN: 2536- 9555)

- **ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م):**

– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت– لبنان،١٩٠٠م، الجزء:٢.

- **الدينورى، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه(ت٢٧٦هـ/٨٨٩م):**

– الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة،١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، الجزء:٢.

- **الذهبى، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٨م):**

– سير أعلام النبلاء، تحقيق: نذير حمدان، مؤسسة الرسالة، ط: ٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، الجزء:٢٢.

– تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمرى، دار الكتاب العربى، بيروت، ط:٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، الجزء:٥١.

– معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط: ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، الجزء:١.

- **ابن رشيد السبتى، أبو عبد الله محمد بن عمر(ت٧٢١هـ/١٣٢٤م):**

– ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨١، الجزء:٣.

– ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: د. محمد الحبيب ابن الخواجه، دار الغرب الإسلامى، بيروت– لبنان، ط:١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، الجزء:٥.

- **الزبيدى، محمد بن محمد بن عبد الرازق(ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م):**

– تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، د. ت.

- **الزهرى، أبى عبد الله محمد بن زيد بن أبى بكر (ت أواسط القرن ٦هـ/١٢م):**

– كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت.

- **سبط ابن الجوزى، شمس الدين أبو المظفر يوسف(ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م):**

– مرآة الزمان فى تواريخ الأعيان، تحقيق: أنور طالب وآخرون، دار الرسالة العلمية، دمشق– سوريا، ط:١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، الجزء:١٢.

- **السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م):**

– حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية– عيسى البابي الحلبي وشركاه– مصر، ط: ١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، الجزء:١.

- **شافع بن على، الكاتب العسقلانى المصرى(ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م):**

- الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق: أ.د/ عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط:١،١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

- **الشافعى، أبو عبد الله محمد بن إدريس(ت٢٠٤هـ/٨٢٠م):**

- ديوان الإمام الشافعى، شرحه وضبط نصوصه وقدم له: د.عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت– لبنان، د. ت.

- **ابن شاكر الكتبى، محمد بن شاكر بن أحمد(ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م):**

- فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط: ١، ١٩٧٣م، الجزء:٣.

- **الصفدى، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م):**

- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: د.علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت– لبنان، دار الفكر، دمشق– سوريا، ط:١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، الجزء:١.

- الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث– بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، الجزء:٢٩.

- **الطبرانى، أبو القاسم سليمان بن احمد بن أيوب(ت٣٦٠هـ/٩٧١م):**

- المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت، الجزء:٨.

- **ابن عبد الظاهر، محى الدين(ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م):**

- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق: د. مراد كامل، وزارة الثقافة والارشاد القومى، الجمهورية العربية المتحدة، د. ت.

- **العبدرى، أبى عبد الله محمد بن محمد(ت بعد ٧٠٠هـ/١٣٠٠م):**

- رحلة العبدرى، تحقيق: د. على إبراهيم كردى، دار سعد الدين، دمشق، ط:٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

- **ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله(ت٥٧١هـ/١١٧٥م):**

- تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين أبى سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط:١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، الجزء:٤٥.

- **العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر(ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م):**

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية– صيدر اباد/ الهند، ط:٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، الجزء:٤.

(ISSN: 2536- 9555)

- **ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحى(ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م):**

– شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق– بيروت، ط:١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، الجزء:٧.

- **أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل(ت٧٣٢هـ/١٣٣١م):**

– المختصر من أخبار البشر، تحقيق: د.محمد زينهم عزب،أ. يحيى سيد حسين، دار المعارف، القاهرة، د.ت، الجزء:٤.

- **ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم(ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م):**

– تاريخ ابن الفرات، تحقيق: د. قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٤٢م، المجلد:٧.

- **الفيروزابادى، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/١٤١٤م):**

– القاموس المحيط، تحقيق: أنس محمد الشامى، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- **ابن القاضى، أحمد بن محمد بن أبى العافية(ت ١٠٢٥هـ/١٦١٦م):**

– جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرياض، ١٩٧٣م.

- **ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م):**

– عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- **القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):**

– صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب السلطانية، القاهرة، ١٣٣٤هـ/١٩١٦م، الجزء:٩.

- **ابن قيم الجوزية، محمد بن أبى بكر بن أيوب(ت٧٥١هـ/١٣٥٠م):**

– المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط:١، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

- **كاتب مراكشى(توفى ق٦هـ/١١م):**

– الاستبصار فى عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد،١٩٨٦م.

- **ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمران(ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م):**

– البداية والنهاية، التحقيق:على شيرى، دار إحياء التراث العربى، ط:١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، الجزء:١٠.

- **المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م):**

– الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة،١٤١٧هـ/١٩٩٧م، المجلد:١.

- **المستعصمى، محمد بن أيدمر(ت٧١٠هـ/١٣١٠م):**
  - الدر الفريد وبيت القصيد، تحقيق: كامل سلمان الجبورى، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، الجزء:٤.
- **مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحاج(ت٢٦١هـ/٨٧٥م):**
  - صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، دار الحديث، القاهرة، ط:١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، الجزء:١.
- **ابن المعتز، عبد الله بن محمد(ت ٢٩٦هـ/٩٠٨م):**
  - طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- **المقريزى، تقى الدين أبى العباس أحمد بن على(ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م):**
  - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط:١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، الجزء:٤،٣.
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط:١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، الجزء:٢،١.
- **ابن منظور، محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/ ١٣١١م):**
  - لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، الجزء:١١.
- **الهروى، أبو الحسن على بن أبى بكر(ت٦١١هـ/١٢١٤م):**
  - الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: د/ على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط:١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

ثانياً: المراجـــع

- **أحمد تيمور، أحمد بن إسماعيل(ت١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م):**
  - معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية، تحقيق: د.حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط:٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- **أحمد عبد الرازق(الدكتور):**
  - المرأة فى مصر المملوكية، الهئية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.
- **آنخل جنثالث بالنثيا:**
  - تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة: حسين مؤنس، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م.
- **جمال الدين الشيال(الدكتور):**
  - تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
  - الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، ١٩٤٩م.

(ISSN: 2536- 9555)

- **الحسن الشاهدى:**
  - أدب الرحلة بالمغرب فى العصر المرينى، منشورات عكاظ، د. ت، الجزء: ١.
- **حسين مؤنس(الدكتور):**
  - تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مكتبة مدبولى، القاهره، ط:٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- **حسين محمد فهيم(الدكتور):**
  - أدب الرحلات، عالم المعرفة، يونيو ١٩٨٩م
- **حسين إبراهيم الجبرانى(الدكتور):**
  - الرحلات العلمية بين مصر والمشرق الإسلامى فى العصر المملوكى الأول، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط:١، ٢٠١٧م
- **الزركلى، خير الدين:**
  - الأعلام، دار العلم للملايين، لبنان، ط: ١٥، مايو٢٠٠٢م.
- **زكى محمد حسن(الدكتور):**
  - الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، دار الرائد العربى، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- **زكى على(الدكتور):**
  - الإسكندرية فى عهد البطالمة والرومان، مطبعة دار المستقبل، د. ت.
- **سعيد عبد الفتاح عاشور(الدكتور):**
  - العصر المماليكى فى مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط:٢، ١٩٧٦م.
  - المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م.
  - الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط:٩، ٢٠١٠م، الجزء:٢.
- **سليم حسن:**
  - موسوعة مصر القديمة، ج:١٤، مؤسسة هنداوى سى آى سى، د. ت.
- **شوقى ضيف(الدكتور):**
  - الرحلات، دار المعارف، ط:٤، ١٩٨٧م.
- **عمر فروخ(الدكتور):**
  - تاريخ الأدب العربى، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط:١، ١٩٨٣م.
- **عواطف محمد يوسف:**
  - الرحلات المغربية والأندلسية، الرياض،١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م

- **فؤاد قنديل:**
  - أدب الرحلة فى التراث العربى، الدار العربية للكتاب، ط:٢، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- **قاسم عبده قاسم(الدكتور):**
  - عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، ط:١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- **كراتشكوفسكى، اغناطيوس يوليانوفتش:**
  - تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د. ت، القسم:١.
- **كريستان زيجلر،حسان لوك بوفو:**
  - الفن المصرى، ترجمة: عادل أسعد الميرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠٨م.
- **محمد زغلول سلام(الدكتور):**
  - الأدب فى العصر المملوكى، دار المعارف، القاهرة، د. ت، الجزء:١.
- **محمد حمزه إسماعيل الحداد(الدكتور):**
  - السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولى، ط:٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- **محمد جمال الدين سرور(الدكتور):**
  - دولة بنى قلاوون فى مصر، دار الفكر العربى، د.ت.
- **محمد شفيق غربال وآخرون:**
  - تاريخ الحضارة المصرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، المجلد:١.
- **محمد بن محمد مخلوف:**
  - شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط:١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، الجزء:١.
- **مصطفى العبادى(العبادى):**
  - مجتمع الإسكندرية فى العصر البطلمى، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٥م.
- **نقولا زيادة(الدكتور):**
  - الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٨٧م.

ثالثاً: الرسائل الجامعية والدوريات

- **أمال رمضان عبد الحميد:**
  - الحياة العلمية فى الإسكندرية فى العصر المملوكى، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(ISSN: 2536- 9555)

- **أمانى بنت سعيد الحربى:**
  - مصر من خلال كتابات الرحالة المغاربة فى القرنين السابع والثامن الهجريين/١٣-١٤م، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى١٤١٦هـ/٢٠١٥م.
- **دريد عبد القادر نورى:**
  - سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية فى بلاد الشام، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، العدد:٩، ايلول ١٩٧٨م.
- **جمال الدين الشيال(الدكتور):**
  - الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، ١٩٤٩م.
- **عبد السلام جمعه محمد:**
  - قادة المماليك الثلاث(الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل ٦٥٨هـ/١٢٦٠م- ٦٩٣ هـ/١٢٩٣م) وتجديد دعوة الجهاد ضد الصليبيين وطردهم من أرض المسلمين، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد:٢٠، العدد:٣، آذار ٢٠١٣م
- **عوض الغبارى:**
  - ظاهرة التأليف الموسوعى فى العصر المملوكى فى مصر من منظور حضارى أدبى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد: ٦١، العدد: ٣، يوليو ٢٠٠١م.
- **الشاذلى بو يحيى:**
  - الرحلة المغربية، حوليات الجامعة التونسية، العدد:٤، تونس، ١٩٦٧م
- **على إبراهيم كردى(الدكتور):**
  - الرحالة العبدرى، مجلة البحوث والدراسات فى الآداب والعلوم والتربية، كلية المعلمين، جامعة الملك عبد العزيز، السنة:٢، العدد:٣، ٢٠٠٥م.
- **محمد الفاسى:**
  - أبو عبد الله محمد العبدرى، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد:١٠،٩، ١٩٦١-١٩٦٢.